لوحتان ... في رمضان

١٤٠٦/٨/٢١هـ

كلَّما أحسسْتُ بخطوات شهر رمضان المبارك تقترب منا رأيتُ ذهني يعرض أمامي لوحتين.

إحداهما تسوق إلى قلبي سروراً عظيماً، وتبعث في نفسي أملاً كبيراً، وتجعلني أطيل النظر فيما حوت من روائع الصور، وكأني أستمدُّ من محتوياتها سعادة لقلبي، وحيويةً لنفسي، وراحةً لذهني.. لا توازيها راحة ولا حيوية ولا سعادة.

إنها لوحةٌ ترسمها يد التاريخ، تلك اليد النزيهة التي لم تلبس خباء الغدر والتشويه.

ما مضمون هذه اللوحة يا ترى؟.

مضمونها ذلك الموقف الإيجابي من رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام تجاه شهر رمضان المبارك هذا القادم العزيز.

تعالوا معي لنستعرض بعض ما في هذه اللوحة الرائعة.. **«كان رسول الله ﷺ أكرم الناس، وكان أكرم ما يكون في رمضان».**

صورة معروضة في لوحتنا، ألوانها بديعة، ظلالها عميقة، صاحبها ذلك الرجل الذي أدَّبه ربه فأحسن تأديبه.

«كنا ندعو الله ستة أشهر أن يبلِّغنا صيام رمضان، وكنا ندعوه ستة أشهر أخرى أن يتقبَّل منا صيام رمضان».

صورة أخرى رائعة.. نرى فيها أصحاب رسول الله - رضوان الله عليهم - وهم يتشوَّفون من شرفات الأمل إلى ضيفهم العزيز الغالي ويتحرقون شوقاً إليه.. ثم نراهم وهم يتابعون بنظرات مملوءة بكل حب واحترام.. وفي كلا الحالتين.. حالة اللقاء وحالة الوداع.. يرفعون دعاءهم الصادق إلى الله تعالى أن يبلِّغهم رمضان وأن يتقبَّله منهم.

« كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان يشد مئزره، ويوقظ أهله، ويجتهدِ في العبادة والدعاء»

صورة ثالثة. فيها ملامح واضحة من الجدِّ في العبادة.. والخوف من الله، والرجاء فيما عنده من فضلٍ ومثوبة.

وكل هذه الصور وغيرها تملأ نفس المسلم صفاءً، وتشعره بقيمة الالتجاء إلى الله، وبضرورة الإحساس الصادق بمواطن العبادة ومواقفها.. ومعنى ذلك أن كلَّ الصور التي تناقض هذه الصور المذكورة - آنفاً - تصبح دليلاً على غفلةٍ وتفريط وضياع.

وهنا تبرز أمام عيني اللوحة الثانية..

إنها لوحة معتمة تحتوي على عدد كبير من الصور الباهتة التي رسمتها يد الواقع، من خلال حياة المسلمين اليوم.. ومن خلال نظرتهم إلى رمضان.. وتعالوا نستعرض بعض ملامح اللوحة الثانية.

« وجوه مظلمة.. وصدورٌ ضيِّقة.. نراها أيام رمضان أمام أعيننا وكأن هذا الشهر المبارك قد نزل على رؤوس أصحابها نزول الصاعقة».

«أناس يذهبون وآخرون يجيئون.. يحملون معهم أصناف الأطعمة وغرائب المأكولات.. رمضان أقبل.. فلا بد من زادٍ يدَّخر بكمياتٍ كبيرةٍ، وكأن هذا الشهر العظيم قد أصبح ميداناً لعرض المأكولات، وليس مجالاً للعبادة والطاعة والتوبة إلى الله».

لو عرضنا ما في هذه اللوحة على ما في لوحتنا الأولى فسوف نجد فرقاً كما بين السماوات والأرض.

إذن...

فنحن ننحرف بمسار هذا الشهر.. ونستعد له بما لا يناسبه.. وننسى أنه فرصة للتوبة الصادقة.. ومراجعة

النفس... وليس مجالاً لجمع ما لذَّ وطاب من مأكول ومشروب.

هاتان اللوحتان أراهما أمامي كلَّ عام.. وأشعر أن رمضان يتجسَّد أمامي رجلاً صادقاً عطوفاً رحيماً يتحسَّر على حالنا ويدعونا إلى الطريق الصحيح..

جئت بعد الغياب يا رمضانُ وفؤادي كما ترى ولهانُ

*****

العملية الإبداعية عند الشاعر

الشاعر لا يكتب شعره من فراغ.. وأعني بذلك الشاعر الحقَّ الذي يشعر بقصيدته تركض في أعماق قلبه، قبل أن تتقيد بقيود الكلمة على الورق.. هذا الشاعر ينبتُ الإبداع الشعري في نفسه ويُسقى بدمه قبل أن يظهر للناس على هيئة قصيدة لها ألفاظها وصورها الشعرية.

العملية الإبداعية عند الشاعر معقدة وميسورة في آنٍ واحد.. أما تعقيدها فإنه ينشأ من كثرة الأحاسيس التي يمتلئ بها قلب الشاعر تجاه موقف من المواقف التي يتعرض لها.. حيث تتضارب في داخله عوامل الانفعال، ويظلُّ مأخوذاً بهذا التضارب فترةً من الزمن يمكن أن يطلق عليها «فترة الإرهاص بالقصيدة»، حيث تتكوَّن بطريقة عجيبة يكون فيها الشاعر قلقاً ضيِّق الصدر.. خائفاً من الإقدام على تجميع تلك الانفعالات وصبِّها في بوتقة الشعر.

وهذا الخوف عامل مهم ـ في نظري ـ من عوامل نجاح «عملية الإبداع الشعري».. كيف ذلك؟

الشاعر عندما يصل إلى مرحلة الخوف هذه يكون قد أصبح ـ فعلاً ـ تحت وطأة الانفعال القوي التي يشعر بحاجة

عندها إلى تفريغ ما يعتمل داخل نفسه، وهنا ينشأ الخوف.. حيث يظل الشاعر مضطرب النفس، يقدِّم رجلاً ويؤخِّر أخرى.. وهذا ما يعبر عنه النقَّاد بصعوبة المطلع في القصيدة، أو صعوبة الافتتاح في الكتابة.

ولا أريد هنا أن أقول إنَّ العملية الإبداعية عملية «لا شعورية» تتهيَّأ في لحظة «اللاوعي» عند الإنسان.. حتى لا ندخل في متاهات تيار «اللاَّوعي» في الفن، ولكنني ـ من خلال التجربة ـ أرى أن الصورة الإبداعية تتسرّب في لحظة من لحظات الانفعال التي يخف فيها وعي الإنسان الشاعر بما حوله، حتى إنه ـ والحديث هنا عن الشاعر ـ يعجب لبعض الصور كيف جاءتْ في قصيدته.. ولا يستطيع في أحيان كثيرة أن يحدِّد موقفه فيها.. وهل فكَّر فيها بشكلٍ «مكثفٍ» حتى واتته أم لا؟

ولكنَّ الشاعر لا يلبث أن يعيش بوعي كاملٍ ظروفَ قصيدته.. ويعود النظر في تجربته الشعرية والفنية.. مما يدفعه إلى الحذف والتغيير والتقديم والتأخير، وهذه المرحلة «الترميمية» من أصعب مراحل ولادة القصيدة وليست أصعبها ذلك أن القصيدة التي تنتج عن تجربة شعورية ضخمة لا تأتي هكذا دفعةً واحدة.. ولكنها تجيء مفرَّقةً، ممزّقة الأعضاء

موزَّعة الصور.. ثم بعد ذلك وبعد أن يحس الشاعر بأن ما كتبه قد استنفذ ما كان في نفسه.. تبدأ عملية الترتيب.. ولَمِّ شتات القصيدة.

إن العمليَّة الإبداعية في الشعر.. لا تختصُّ بشكلٍ معيَّن للقصيدة. ولا بالانسياق وراء تيَّار أدبي معين.. ولا برصف الكلمات رصفاً منهكًا على أي طريق من طرق كتابة الشعر.

إن العمليَّة الإبداعية تتمثَّل في ذلك الإحساس الصادق الذي ينتج عنه الانفعال الشعوريُّ العميق.. الذي يكون - بدوره - سبباً مهماً من أسباب إبداع الشاعر فيما يكتب.

ثم إنَّ هذه العمليّة الإبداعية تحتاج إلى ثقافة متينة، وإلى إحساس رهيف، وإلى صدقٍ في هذا الإحساس.. وهي بهذا تُخرِج من دائرة الشعر كلَّ من لا يملك القدرة على هذه العملية مهما طبَّل له المطبِّلون، ولمَّعه الملمِّعون. إنَّ جهل كثير من نقاد اليوم بعمق الإبداع في الشعر هو الذي جعلنا نرى بريقاً خادعاً لكثير من «المحسوبين» على الشعر.

وبهذا نخلص إلى نتيجة مهمة وهي: أنَّ الفنَّ ليس سهلاً، والعملية الإبداعية لا تأتي بالادّعاء ولا بالخداع.

إن المتلقِّي الواعي يعرف ما يأخذ وما يدع.. والعمل

الإبداعي لا يخطىء مكانه من قلوب الناس أبداً.

إن الشعر عضو رئيس من أعضاء أسرة الفنّ.. والفنُّ أسرة لها عراقتها، ولها أعضاؤها وطرائق حياتها.. كما أنَّ للفنّ لغته التي تخاطب مشاعر الإنسان، وتشبع حاسته الجمالية في أي زمنٍ وعلى أيِّ أرض، إنَّ الفنَّ هو اللغة العالمية التي تستطيع البشرية أن تتفاهم بها.. فأنت إذا رأيت لوحةً رائعةً لفنَّان تشعر بأنك تتحدث إلى صاحبها من خلالها، دون أن تكون بينك وبينه رابطة من لغةٍ أو فكرٍ أو عقيدة.

والفنُّ في ظلِّ الإسلام يتخذ مسلكاً مميَّزاً.. فهو وسيلةٌ مهمة من وسائل إثراء الحسِّ الجمالي عند الإنسان.. ولكنه ـ بفضل منهج الإسلام السليم ـ لا يكون غايةً في ذاته.. بل هو وسيلةٌ إلى غاياتٍ سامية.. ومن هنا رأينا الفنَّ الإسلامي بكل أصنافه متميِّزاً بهذه النظرة الغائية الواعية.. فنّ العمارة.. فن التحف معدنيةً كانت أم زجاجيةً أم خشبيةً.. فن تزيين المخطوطات وتهذيبها.. فن الشعر.. إلى غير ذلك من أصناف الفنون.. نجد لها في ظلِّ الإسلام تميُّزها ونقاءها.

وإذا كان الإسلام قد فتح للفن أبواباً سامية.. فإنه في الجانب الآخر أغلق أمامه تلك الأبواب السيئة التي كانت تبيح

للإنسان استخدام الفن في الطقوس الدينية.. مما يجعل الدين في ذهن الإنسان صوراً فنية تؤدَّى بطريقة مختلفة.. لقد رفض الإسلام هذا المنهج المنحرف للفن، وربط الإنسان ربطاً مباشراً بالله تعالى.. ثم أشبع حاسة الجمال عنده بما أباحه له من طرق الفن المتعدِّدة.

هذا هو تصوُّري للفن عموماً.. وللعملية الإبداعية في الشعر على وجه الخصوص.

*****

على أبواب كابل

١٤٠٩/٧/٧هـ

مضت قافلة الجهاد الأفغاني تقودها كوكبة من الرجال المسلمين الذين أدركوا ما لديهم من قوة وما عندهم من ذخيرة الإيمان.. فراحوا يصوغون ملاحم الجهاد الإسلامي على مرأى من الناس ومسمع.. فإذا بالعالم كل العالم يسمع بوضوح كلمة «الجهاد»، من خلال وسائل الإعلام طوعًا وكرهاً، وتبرز من خلال عناوين الصحافة والكتب، ويشع من حروفها نور الإسلام العظيم لذي كان يظن المعتدون أنهم قد أخمدوه إلى الأبد.

سارت القافلة وانطلقت، وأصوات التكبير تزفها، تعطر الأجواء حولها، انطلقت وعيون أصحابها ترنو إلى السماء، وقلوبهم تهتف قبل ألسنتهم ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

سارت القافلة، كانت هنالك أسئلة كثيرة ترسم في أفق قافلة الجهاد الأفغاني ألوفاً من علامات الاستفهام... ماذا يريد القوم؟

هل غاب عن بال هذا المجاهد الأعزل عندما انطلق بقافلة الجهاد ما يتمتع به عدوه من قوة وجبروت؟

هل نسي المجاهد الأفغاني عندما انطلق أنه يواجه إحدى القوتين العظميين في العالم؟ هل نسي السلاح الفتاك الذي يملكه عدوّه.. المدافع.. الصواريخ.. الطائرات.. الغواصات.. القنابل؟

هل نسي المجاهد عندما ساق قافلة الجهاد أنه يواجه عدواً قد غزا الفضاء.. وصل القمر.. أقلق الكواكب.. والمجرَّات؟ ويح المجاهد الأفغاني!.. هل نسي جبروت عدوه في مذابح المسلمين في المجر، وسيبيريا، وغيرها؟

كانت الأسئلة كثيرة تنهال على المجاهد من كل مكان، وكان المجاهد يجيب عنها بتصميمه على الجهاد، بثقته بالله ثم بحرصه على أن يكون جهاده خالصاً لوجه الله، وكان المجاهد يشفق على أولئك الذين يتساءلون.. يشفق عليهم لأنهم - في نظره - لم يستطيعوا التخلص من سيطرة الوهم على أذهانهم.. لم يستطيعوا أن يستوعبوا تماماً معنى أن يتجه الإنسان إلى ربه واثقاً بنصره، غير مبالٍ بما يراه من قوى البشر الزائفة التي تحيط به.

ومضت قافلة الجهاد الإسلامي في أفغانستان تجوب فيافي هذا العصر المادي، حاملة شعار الإيمان بالله، ساخرة من كل معاني الزيف التي يعيشها إنسان هذا العصر، مضت تحمل سلاحاً خفيفاً، ولكنها كانت تحمل يقيناً بالله يهز الجبال الراسيات.

لم تكن الرحلة سهلة ولا قصيرة.. ولكنها كانت رائعة، تُحقِّق للمجاهد من اللَّذة الروحية أضعاف ما تسببه له من التعب والإرهاق، مضت القافلة تهز العالم هزاً، وتزلزل كيان الدولة العظمى الغاشمة زلزلةً.. وتقول للمسلمين الغافلين في أنحاء الدنيا: هذا هو دينكم يواجه بنوره ظلمات العالم المادي فيمزِّقها.. يقف به المجاهد الأفغاني حاملاً بندقيته أو مسدسه أمام أعتى وسائل الدمار السوفيتي، ثم يعود منتصراً.. أو يحظى بالشهادة في سبيل الله.

مضت القافلة المجاهدة عبر وديان أفغانستان وجبالها الشامخة، تحمل الإيمان في قلبها والسلاح الخفيف في يدها.. وتهز بتكبيرها وتسبيحها الآفاق من حولها.. لم تتوقف.. بل سارت ـ وشهداؤها يعطرون الأجواء بدمائهم الزكيَّة في سبيل الله.. وأبطالها يسجلون ملاحمهم في دفتر المجد يوماً بعد يوم.. كانت الجبال الشامخة في هضبة «باميز»

تحجب عن عيونهم مدن بلادهم وقراها.. ولكنهم كانوا يرون بعين البصيرة نهاية الباطل.. وعقبى المعتدين.

مضت قافلة الجهاد لتعيد إلى نفوس المسلمين المهزومة ثقتها بالله تعالى، وبنصره المؤزَّر، وكانت قافلة الجهاد تسير - وما تزال - محاطة بعون الله ورعايته، وبعددٍ من الكرامات الإلهية التي يخص بها الله المجاهدين الصادقين الصابرين.. فيزيدها ذلك يقيناً على يقينها، ويزيدها تصميماً على مواصلة الجهاد، وكأني بقوَّاد تلك القافلة المباركة وجنودها يبتسمون في إشفاق عندما يقرؤون تلك الكلمات «التشكيكية التي سطرتها بعض الأقلام المسلمة من خلال الصحافة.. كلمات تثير الشكوك في حقيقة الجهاد ونوايا المجاهدين.. وفي صدق ما يقال عن تلك الكرامات التي يجريها الله لبعض المجاهدين».

يقرأ المجاهدون كلمات التشكيك تلك وهم يبتسمون، ويعلمون أن مادية هذا العصر الزائفة قد حجبت حقائق الإسلام عن عيون كثير من أهله، مما جعل ثقة كثير من المسلمين - مع الأسف - تهتزُّ في بعض معطيات عقيدتهم الإسلامية.. فكان ذلك خير مدخل لأعدائهم عليهم.

يبتسم المجاهدون ابتسامة الإشفاق وفي قلوبهم شعور راسخ بأن جهادهم الصادق هو الذي سيعيد إلى نفوس

المسلمين المنهزمين ثقتها بعظمة الإسلام، وبأهمية الإيمان وانتعلُّق بالله في مواجهة المعتدين.

مضت قافلة الجهاد.. تخوّض بحر الملاحم الخالدة تسع سنوات، وها هي تقف هذه الأيام على أبواب «كابل» العاصمة.. تنتظر لحظة انسحاب العدو صاغراً يجرجر أذيال الهزيمة والعار، «كابل» تنتظر بفارغ الصبر، والعالم كله عيون ترنو لترى كيف يكون الحصاد.. ومن بين تلك العيون عيون حاقدة لا نشك في أنها ما تزال تبحث عن طريق تهرّب من خلاله إحباطها لقافلة الجهاد، ولكن الله لهم بالمرصاد..

ولابد من أن نشير ونحن نرنو بشوق إلى حصاد الجهاد الأفغاني إلى أن النتيجة قد حصلت، والهدف تحقق، مهما كانت النتائج العسكرية.. نعم تحقق الهدف حيث كان الجهاد الأفغاني مدرسة إسلامية تتلمذ على أيدي أساتذتها عشرات بل مئات من أبناء المسلمين في أنحاء العالم، مما أيقظ روح انجهاد في نفوسهم، وأشعرهم بضآلة أعدائهم مهما ملكوا من القوى المادية.. وهذه نتيجة عظيمة لو لم يتحقق من مدرسة الجهاد إلا هي لكفى..

لقد قتل الجهاد روح اليأس عند المسلمين، وأعاد إلى أذهانهم الحقيقة الكبرى التي طمستها مادية هذا العصر، ألا

وهي أن النصر لعباد الله المؤمنين لا يتوقف على العتاد والسلاح ـ بالرغم من أهميته ـ ، ولكنه يتوقف ـ أولاً وأخيراً ـ على نصر الله وتأييده، فإذا أراد الله لعباده النصر فلسوف تسحق رصاصة المسدس مدفعية العدو الثقيلة، وتحطم رصاصة الرشاش الطائرة الحربية الجبَّارة، وهذا ما حدث في أفغانستان، تشهد به جبالها ووهادها، وتشهد به بقايا حطام طائرات العدو ودباباته ومدافعه.. وهذا ـ تا الله ـ درس عظيم تلقَّته البشرية في هذا العصر على يد الجهاد الأفغاني.

يا قافلة الجهاد تقدَّمي فإننا ننتظر وصولك إلى «كابل» لتعلني من هناك قيام الدولة الإسلامية في أفغانستان.. ولتنقذي أبناء هذا البلد المسلم من الشيوعية وعملائها.. ننتظر الساعة التي ينطلق فيها الأذان من كل مئذنة معطلة في «كابل».. أبناء المسلمين جميعاً وأبناء هذا البلد ـ المملكة العربية السعودية ـ الذين كان لهم دورهم المشهود في دعم مسيرة قافلة الجهاد.. ينتظرون تلك الساعة ليزفوا إلى المجاهدين تهنئة مصحوبة بالدعاء لهم، والشكر لله العلي القدير.

وإلى اللقاء على ثرى الجهاد يا أبناء الإسلام.

جمعية البر ... ومصحف لكل كفيف

١٤٠٩/٩/٢٧هـ

يغمرك الفرح.. تغرد عصافير البشرى على أغصان قلبك، وأنت ترى هذا الإقبال الرائع من أبناء هذا البلد، على العطاء... الصدقة.. الزكاة.. التبرُّع للمحتاجين داخل المملكة وخارجها.

تشعر أنَّ الدنيا بمباهجها تلملم نفسها وتستلقي صاغرة عند قدمي رجلٍ صاحب مالٍ، يخرج زكاة ماله، ويتبرَّع فوق الزكاة ببناء مسجد، أو دعمٍ للجهاد في سبيل الله.. أو رعايةٍ لأسرة فقيرة مات عائلها.

شيء يثلج الصدر، وأنت ترى صورة التكافل الاجتماعي تتجلَّى أمام عينيك مدفوعةً عند «كثير من الناس» بدافع الرغبة في أجر وفير من ربٍّ قدير، إننا على قناعة من أن الغنيَّ الذي ينفق في سبيل الله إنما يطهِّر بذلك نفسه وماله، ويخرج ما للآخرين من حق معلوم في ذلك المال الذي وضعه الله في يد عبده، ابتلاءً وامتحاناً، نحن على قناعةٍ بذلك، ولكننا لا نملك إلاَّ أنْ نفرح بأريحية المتطوعين، وبسخاء المتصدقين، وأن ندعو لهم بالأجر.. والمغفرة والقبول.. فإنّ فعل الخير يبهج النفس، ويملأ جنباتها سعادة وسروراً.

والمتابع لساحات العطاء والصدقة في هذه البلاد يجد فيها تنوعاً وشمولاً.. فالفقراء يجدون ـ بحمد الله ـ من يرعاهم، وكذلك الأيتام والأرامل.. ومشروعات الخير تجد من يدعمها، والمساجد تجد من يتسابقون على بنائها.. والجهاد الإسلامي في أفغانستان وفلسطين يجد من يدعمه ويرخص في سبيله الغالي والنفيس، والرجل ذو المال الذي ضاقت عليه مسالكه بتراكم الديون يجد من يساعده، والمحتاج يجد من يقرضه.. والجمعيات الخيرية تجد من يدعمها بالجهد والمال، فهناك عددٌ غير قليل من المتطوعين والمتطوعات في مجال العمل الخيري في الجمعيات الخيرية.. كل هذه الجوانب تجد فيها من معالم البذل ما يسعدك ويزيدك أملاً أن يصلح الله أحوال المسلمين بها.

في هذا العام قدَّر لنا أن نعرف بعض أصحاب رؤوس الأموال، فعلمنا من بعضهم أنه كان يستثقل دفع زكاة ماله في سنواتٍ خلت، وكان مع ذلك يشعر بضيق في النفس، وعدم بركة في الرزق.. ثم أراد الله له الخير فدفع زكاة ماله فانجلى همه، وبارك الله له في رزقه. وهذه حقيقة من الحقائق التي أكدها ديننا الحنيف على لسان رسوله ﷺ.

ولو لم يكن للزكاة قيمتها وأهميتها لما قاتل أبو بكر الصديق رضي الله عنه مانعي الزكاة حتى دفعوها.

كل هذا رائع وجميل.. فما أحسن التكافل تراه في مجتمعك، وما أروع التعاون تشهده بين أفراد هذا المجتمع.

ولكني بعد هذا أحب أن أناقش قضية.. عفواً لا أناقشها، ولكن أطرحها راجياً أن يؤدي طرحها إلى ما أهدف إليه من شمولية العطاء وعمومية الخير.

الباذلون يتفاوتون في بذلهم.. وفي نظرتهم إلى المجالات التي يبذلون فيها.. فمنهم من لا يرضى أن يبذل شيئاً من ماله إلا في بناء مسجد، مهما كانت الحاجة إلى غيره من مشروعات الخير.. ومنهم من يرى أن الجهاد أولى بكل عطاء في هذه الأيام فلا يصرف شيئاً من ماله إلى غير ميدان الجهاد.. ومنهم من يقتنع أن بناء مدرسة في بلدٍ ما تعلم القرآن وعلوم الدين الإسلامي أولى وأجدى.. ومن الباذلين من يمتنع عن تقديم ماله إلى جمعية خيرية لأنه لا يستوعب - في حقيقة الأمر - مدى ما تقدمه من خدمة لبعض الأسر الفقيرة المحتاجة.

ومن هنا تنشأ مشكلة بعض المشروعات الخيرية النافعة التي تصطدم بعدم اهتمام أصحاب البذل والعطاء أو عدم قناعتهم.

أقول ذلك من خلال تجربة عملية «شخصية» في هذه الجوانب.. ولا بأس أن أستشهد بموقف من المواقف التي تؤكد ما ذكرته. كنتُ قبل أيام في مكان عام قد وُزِّعتْ فيه أوراق من قِبَل «المكتب الإقليمي لشؤون المكفوفين»، وفيها دعوة لأصحاب الأموال أن يمدوا يد العون للمكتب في مشروع كبير يستحق الاهتمام؛ ألا وهو مشروع طباعة القرآن الكريم بطريقة «برايل» تحت شعار (مصحف لكل كفيف)..

والحقيقة أن هذا المشروع يلفت النظر ويستحق العناية والاهتمام.. خاصةً إذا علمنا أن النسخة الواحدة ستكلف مبلغاً يزيد على خمسمائة ريال..

وعندما قرأت هذا النداء توجهت بالحديث إلى بعض من كانوا بجواري في ذلك المكان، وفيهم من رزقه الله مالاً خاض به غمار التجارة حتى أصبح فيها ذا شأن، فطرحت عليه فكرة التبرُّع لهذا المشروع، ولكنه تردَّد قائلاً: خير لي أن أبذل مالي في بناء مسجدٍ أو رعاية أسرة فقيرة من أن أبذله في مشروع يتبناه مكتب له ميزانيته.. وطال بيني وبين صاحبي الحوار ولكن دون أن يقتنع بتقديم شيء لمشروع طباعة المصحف المذكور بطريقة «برايل» للمكفوفين.

وهـذا الموقف كان مصحوباً بالاجتهاد وحسن النية، ولكنه ـ بلا شك ـ يعد موقفاً سلبياً تجاه مشروع كبير كهذا.

وإنني في هذه المقالة أنادي الإخوة الذين منَّ الله عليهم برزقه وأسبغ عليهم نعمته أن يكونوا أشمل نظرةً وأوسع أفقاً.. وألاَّ يحصروا عطاءهم في جانب دون آخر، فالمال أمانة في أيديهم، والعطاء يزيد من المال ولا ينقصه، فالصدقة - كما أخبرنا الرسول ﷺ - لا تنقص مالاً بل تنميّه وتزيد.. وذلك إضافة إلى الأجر الأخروي الذي ضرب الله له مثلاً بالسنبلة ذات المائة حبة.

وأرى أن الالتفات إلى دعم مشروع طباعة المصحف للمكفوفين أمرٌ ضروري، فالمكتب الإقليمي ـ على حسب علمي ـ لم يتجه إلى أهل الخير بطلب دعمهم لهذا المشروع إلاَّ لحاجته إلى هذا الدعم.

وقد خطر ببالي أمرٌ آخر ألا وهو موضوع ريع البطاقات المعدة لمسابقة شهر رمضان للكبار التي يعرضها «التلفاز» في رمضان، فإن إجابات المسابقة لا تُقبل إلا إذا كانت مكتوبة على بطاقةٍ معدة لذلك، تباع النسخة منها بخمسة ريالات ويعود ريعها إلى الجمعيات الخيرية بالمملكة، حيث تتبنَّى جمعية البر بالرياض توزيعها.

وإني أرى أن يخصص لمشروع طباعة المصحف للمكفوفين جزء من ريع هذه البطاقات، وإن الأمل كبير في أن تستجيب جمعية البر لهذا الاقتراح، فالهدف من الفكرة دعم مجالات الخير، وهذا المشروع من أهم تلك المجالات.. خاصة إذا علمنا أن هنالك آلاف المكفوفين من أبناء المسلمين في أنحاء العالم، ينتظرون نصيبهم من هذا المصحف ليتمكنوا من قراءة القرآن.

إنني بهذا أركز على مبدأ الشمولية في العطاء، خاصة في هذا الشهر المبارك.. الذي يضاعف الله فيه من الحسنات، وبشمولية العطاء يسعد المجتمع.. فيجد الفقير من يرعاه.. واليتيم من يرحمه، والأرملة من يصون ماء وجهها، ويجد المعسر من يأخذ بيده، والمسجد من يبنيه، والمشروعات الخيرية من يدعمها.

ويطيب لي أن أهدي هذه الصور إلى أصحاب الأموال:

* يتيم فقد أبويه أو أحدهما ينظر إلى الوجوه نظرة استعطاف.
* أرملة تحضن أطفالها وليس لها مورد.
* حي من الأحياء ليس به مسجد.
* مسجد ليس به مكتبة، وليس لمدرس القرآن فيه ما يعينه على حياته.

* معسر ضاقت عليه مسالك الحياة.. وهو ممن لا يسأل الناس إلحافاً.
* مشروع خيري ينتظر من يدعمه ليؤدي دوره الكبير.
* مجاهد في سبيل الله يحتاج إلى رصاصة.. إلى كساء.. إلى حذاء.. إلى لقمة يستعين بها على الجهاد.
* جائع يبحث عن زاد، وعارٍ يبحث عن ثوب.

صورٌ كثيرة.. وأبواب للخير مشرعة.. وصدق الله القائل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ...﴾. الآية.

كلمة أخيرة:

أرجو أن تولي جمعية البر بالرياض مشروع طباعة المصحف بطريقة برايل للمكفوفين عنايتها واهتمامها.. كما أرجو أن يلتفت أصحاب الأموال إلى هذا المشروع لدعمه. والله الموفق.

*****

في ذكرى فتح القسطنطينية ... يبتسم التاريخ

١٤٠٩/١١/١٨هـ

الكرة الأرضية تغمض عينيها.. تقضي مع نفسها سنوات تأمُّل وتفكير، بعد زمنٍ طويل من الرَّصد الدقيق لمسيرة البشر الذين يسيرون على ظهرها وهم أحياء، ويسكنون داخلها وهم ميّتون.

الكرة الأرضية تفتح عينيها بعد زمنٍ من التأمل.. فترى من أمر الناس عجباً.

أمم تذهب وأخرى تجيء.. أجيال تتعاقب.. وأفكار تنتشر وأخرى تضمحلّ وتموت.. صراع دائم لا يتوقف بين حقٍ يريد أن ينقذ الناس، وباطلٍ يدفعهم إلى الهلاك.. دعاوى.. أباطيل.. شعارات.. اختراعات مادية هائلة.. صعود إلى القمر.. دراسات علمية متطوِّرة.. فساد.. محاولات مستمرة من أكثر البشر للتحللٌ من القيم والأخلاق، قتال لا يتوقف.. مظلومون وظالمون..

هكذا ترى الكرة الأرضية ما يجري عليها.. فيصيبها الدُّوار.. أما ثبت للناس أنها تدور؟.. ربما كان ذلك دواراً في رأسها يصيبها من هول ما ترى!

الكرة الأرضية تقف على رجليها.. وتنقّل عينيها فيما حولها ومَنْ حولها، فترى الإنسانية تجري في لُهاثٍ يشبه الجنون.. تجري إلى حتفها بظلفها.. هروب من الدين.. من اليقين.. من الإيمان بالله في حقيقته العظمى.. إلى مبادئ مادية.. إلى بريقٍ علمي يعشي الأبصار..

ثم ترى الإنسانية مع ذلك وبه شقية كل الشقاء.. مغرورة بعقلها «المخترع» كل الغرور.. حتى أنساها ذلك روحها التي تجوع جوعاً قاتلاً بقدر ما يشبع الجسد شبعاً قاتلاً، الكرة الأرضية تزمُّ شفتيها حسرة وأسفاً.. ترى ساكنيها يرفعون شعار الأخلاق، وهم بها عابثون، يرفعون شعار حرية الإنسان وهم بها يتاجرون.. يبكون على كلب تصيبه شوكة، والأطفال الأبرياء بأيديهم.. وبأموالهم وأسلحتهم يُقتلون.

كل ذلك تراه الكرة الأرضية فيما حولها وأكثر منه.. فتستدير إلى الوراء دورةً تبحث بها عن هواء نقي تستنشقه.. وعن نور ساطع يضيء لها ما أظلم من زوايا جسمها المستدير.. وتستعرض التاريخ الطويل الذي شهدته بكل أحداثه منذ أن خلقها ربها وجعلها موطئاً لهذه المخلوقات التي تسكنها.. منذ أن قالت لربها مع أختها السماء «أتينا طائعين».

تنظر الكرة الأرضية بعينيها المستديرتين الواسعتين إلى الوراء لترى الماضي بكل صوره وأشكاله.

وتظل تنقل ناظريها بين الأمم التي سلفت، حتى إذا لاح لها من بُعد خيال رجل هادئ وقور يحمل في قلبه نور الإيمان، ويدعو الناس إلى نبذ معالم الجاهلية التي قيدتهم بقيودها، وهم يظنون أنهم متحررون، هنا أثبتت بصرها وأخذت تتابع مسيرة محمد ﷺ وإذا بالبِشْر يملأ قلبها ويطفح في وجهها سعادةً وصفاءً وإذا بها تبتسم وهي ترى نور الإسلام يعيد إلى البشرية أملها في حياةٍ ترتفع بقبضة الطين إلى مستوى «نفثة الروح» في هذا الإنسان.

تبتسم وهي ترى قوافل الحقّ ترحل عبر الآفاق، بعيدها وقريبها؛ لتملأ قلوب الناس يقيناً ولتقول لهم: إن كلَّ ما تقومون به تزوير للحياة، وما يصيبكم من تكالب عليها، ولهاث وراء مفاتنها إنما هو وهم.. نعم وَهْمٌ يصوِّر لكم الباطل في صورة الحق.. ويوهمكم أن أكوام الظلام نَدْفُ غمام.

وظلَّت الكرة الأرضية تستعرض الماضي.. وتزيد سعادتها عمقاً ووجهها إشراقاً.. حتى إذا وقفت على باب «القسطنطينية» أطالت به الوقوف، وظلَّت تتأمَّل صفحتَها، وكنتُ منها قاب قوسين أو أدنى، حيث تمكنت أن أقرأ في تلك الصفحة مايلي:

يبرز في أعلاها حديث يُروى عن الرسول ﷺ يقول فيه: «لتفتحنَّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش».

ووقفت أمام هذه الصفحة، أتأمَّل من خلالها ذلك التاريخ العريق الذي وقفت به الأمة الإسلامية على قمة المجد، تحمل في يدها مشعل الحق والخير تضيء به للإنسانية طريق النجاة.

كانت القسطنطينية بمثابة الروح للرومان؛ فهي عروس بلادهم ومقر أبطالهم، والحصن الأخير لدولتهم التي انحسرت أمام امتداد الدولة الإسلامية، فكانت البشارة بفتحها على يد أمير المسلمين، وجيش من جيوش الإسلام الظافرة بشارة بالنصر للحق وأهله، كما كان فتحُها - بعد ذلك - إثباتاً لمعجزة من المعجزات التي هيأها الله لنبيه محمد ﷺ.

خلفاء المسلمين كانوا في تطلُّع دائم إلى نيل هذا الشرف بفتح هذه المدينة، ومن الذي لا يطمح أن يكون ذلك الأمير البطل الذي امتدحه الرسول ﷺ وبشَّر المسلمين بفتح القسطنطينية على يده.

معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.. كان يتمنى أن يتم هذا الفتح

العظيم في عهده، فبعث جيشاً يقوده سفيان بن عوف الأزدي، حاصر المدينة زمناً وعانى في حصارها أشدَّ العناء، ثم عاد دون أن يتمكن من فتحها، بعد أن دفنوا عند سورها أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

وسكنت نفس معاوية وقد أدرك أن وقت تحقُّق البشارة لم يحن بعد، والله أعلم متى يحين.

وفي عهد سليمان بن عبد الملك.. تصرخ امرأة مسلمة على ساحل إحدى المدن بالشام مستنجدة بخليفة المسلمين من جور الروم الذين هاجموا بعض المدن الإسلامية، ويثُور الدم في عروق سليمان، وتلوح أمام عينيه بشارة الرسول ﷺ بفتح القسطنطينية.. فيشرق في جنبات نفسه أمل كبير في أن يحظى بذلك الشرف.. وأن يحطم هذا الحصن العظيم الذي يمثل الروح لدولة الروم.

ويدعو أخاه مسلمة بن عبد الملك.. وما هي إلا أيام حتى تكوَّن الجيش وانطلق صوب القسطنطينية رافعاً راية الجهاد، وبين جوانح قائده أمل كبير أن يفوز بتحقيق تلك البشارة الكريمة.. ومضى الجيش الإسلامي وحاصر المدينة العريقة، وطال الحصار، ثم عاد إلى مقر الخلافة دون أن يحقق الله على يده فتح عروس الرومان.

هنا طويت تلك الصفحة، وتحركت الكرة الأرضية.. تجوب الفيافي والقفار، حتى وقفت على بوَّابة عام ٨٥٧هـ ١٤٥٣م.. حيث أطالت الوقوف هنا مرَّة أخرى.. وأخذت تتابع خطوات ذلك الجيش العظيم، يعسكر مقابل مدينة «القسطنطينية»، يقوده السلطان الشاب «محمد الفاتح»؛ الذي عرف بورعه وتقواه، وبروحه البطولية على من قبله من قواد المسلمين.

وها هو اليوم يشرق في داخله الأمل في أن يكون فتح هذه المدينة على يده، فيفوز بتحقيق تلك البشارة النبوية، ويكون «نعم الأمير» كما ورد عن رسول الله ﷺ.. وكان جيشه يحمل الأمل ذاته في أن يكون «نعم الجيش».

ومضت أيام الحصار طوالاً ثقالاً.. ثم تحقَّق الأمل وفتح الله للمسلمين هذه المدينة، وحُوِّلت كنيستها إلى مسجد، وفاز محمد الفاتح وجيشه بتحقيق البشارة.. واقترن اسمه بهذا الفتح العظيم، حتى صار لا يُعْرَفُ إلاَّ به «محمد الفاتح»، أما غير ذلك من الألقاب فقد غدا باهتاً أمام هذا اللقب العظيم.

ورأيت الكرة الأرضية مشرقة الوجه باسمة الثغر، وهي ترى مواقع هذا الفتح وتسمع نداء الله يرتفع ليجلِّل آفاق «القسطنطينية» بمهابة لا مثيل لها، بعد أن كانت تصم أذنيها أصواتُ النواقيس.

ثم استدارت الكرة الأرضية نحو الحاضر بعد أن ملأت نفسها بروائع الماضي، وبعد أن شمَّت عبير المجد، وذاقت حلاوة النصر.. وإنها لتجوب شوارع حاضرنا، يعتصرها الألم مرَّة أخرى لما ترى من واقع المسلمين، وإذا بها تقف وقوفاً مفاجئاً أمام هضبة «الأناضول» في تركيا، وترسل نظرات ثاقبة إلى الملعب الرئيسي لمدينة «كوتاهيا» التركية، وبرقت أسارير وجهها مرَّة أخرى، وابتسمت وشُغلت بما رأته عن كلِّ ما حولها.. فماذا رأت؟

عشرات الآلاف من الشباب والكهول.. يفدون إلى هذه المدينة من أنحاء تركيا كلها.. في عيونهم تَوْقٌ إلى الأفق البعيد.. أفق الإسلام المشرق، أفق اللغة العربية التي حاولت أصابع العلمانية أن تحرق حروفها الأبجدية، وأن تمحو كلَّ أثر لها في لغة تركيا.

عشرات الآلاف يفدون إلى «كوتاهيا» في هضبة الأناضول، وهم يرددون والأرض كلها تصغي «لن ننساك يامحمد الفاتح»، «نحن أيضاً سنرفع راية الجهاد».

كان ذلك في ذكرى فتح القسطنطينية، حيث أقيم الاحتفال الكبير في تركيا في شهر مايو ١٩٨٩م، وحضره عشرات الآلاف من أبناء تركيا يعلنون فيه ولاءهم لله،

وتصميمهم على أن يظلَّ الإسلام العظيم عقيدتهم الراسخة التي لا تُزيلها معاول الكفر والإلحاد.

كان الاحتفال بذكرى مرور ٥٣٦ عاماً على فتح تلك المدينة كبيراً.. وكان مهيباً تحدَّثت عنه وكالات الأنباء العالمية، وأشارت إليه بعض الصحف الغربية بشيء من الاندهاش المقرون بالتوجُّس والخوف، خاصةً وأن الكلمة التي ألقاها «نجم الدين أربكان» كانت تقابل بالتكبير المجلجل في الآفاق.. وقد تحدَّث عن عظمة الإسلام، وعن ارتباط أبناء تركيا به وبلغته، وذكر الناس بفتوح الإسلام.. التي كان من أعظمها فتح القسطنطينية، والناس يردِّدون «نحن أيضاً سنرفع راية الجهاد ستقيم المسجد هناك من جديد، وسينطلق التكبير كما انطلق من قبل في آفاق تلك المدينة العظيمة وما ذلك على الله بعزيز...

وقفات:

* كان تنظيم الاحتفال عظيماً وقد عبر الكثير من الصحفيين عن روعته وعن انتظام المسلمين فيه انتظاماً لا مثيل له.
* أشار نجم الدين أربكان في زيارته الأخيرة للمملكة إلى أن الإسلام لا يمكن أن يتزحزح من نفوس أ بناء تركيا وأنهم

مرتبطون بإخوانهم المسلمين في كل مكان.

* وهكذا تشرق شمس الحق في بقاعٍ كثيرة من هذا العالم الفسيح لتؤكد للبشرية أن خلاصها من أزماتها لا يكون إلا بالرجوع إلى خالقها ومدبر أمرها.

*****

الأيـــدي المتوضـــــئة
تقرع أبواب كابل

١٤١٠/٦/٢٦هـ

افتحي أيتها الحروف الصادقة بابك.. افرشي أرضك ورداً ورياحين، فها هو القلم.. قادم إليك تدفعه مشاعر الحب.. ويجري في عروقه مداد الأمل الأخضر.. ها هو القلم يحزم حقائب الكلمات ليسافر عبر السطور إلى كل قلب يحس، وعقلٍ يعي، ونفسٍ تتوق.

أيتها الحروف الصادقة.. هذه أنهار البطولات تجري.. وهذا هو القلم يدنو.. ليصنع منك زوارق كلمات صافية صادقة، يقطع بها الأنهار ليصل إلى الضفة الأخرى.

الضفة الأخرى؟

نعم هناك؛ حيث ينطلق التكبير متجهاً صوب الأفق، حيث يرتفع النداء مردداً «لا إله إلا الله» فيزرع الكون حقول أمنٍ وإيمان.

هناك أيتها الأحرف الصادقة، على أبواب كابل.. حيث تقف أسود الحق متوثبةً لاتعرف الخضوع ولا التراجع، ولا

ترضى أن ترى الحق ضائعاً والإسلام محارباً.. فهي تزمجر.. تحمل في إحدى يديها المصحف.. وفي الأخرى تحمل الرشاش، تنظر بإحدى عينيها إلى النصر الذي وعد الله به عباده الصالحين، وبالعين الأخرى إلى الشهادة التي تتوق إليها نفوس المجاهدين.

هناك على أبواب كابل.. حيث تمطر سحائب الإيمان غيثاً هنيئاً مريئاً من الصبر، والثبات في وجه الظلم والطغيان.

تعالي أيتها الحروف الصادقة، انظري إلى تلك الأيادي المتوضئة تقرع أبواع كابل، وقد حمل أصحابها نفوساً لا تفهم إلا لغة الحق، ولا تصرف عبوديتها لغير الله تعالى، ولا تستسلم للأهواء والمطامع.

وضوح في الهدف، وسمو في الفكر، ويقين برعاية الله ونصره.. صفات عظيمة قرأنا عنها في سجلات التاريخ كثيراً، واليوم نراها واقعاً معاشاً على «هضبة باميـر»، على جبال الهندكوش، وأمام أبواب كابل العاصمة الأفغانية، التي تنتظر دخول المجاهدين الفاتحين على أحر من الجمر.

قفي معي أيتها الأحرف الصادقة لتري ما جرى..

مجاهدون صادقون بذلوا أرواحهم لله، وعلَّقوا قلوبهم

بعزته وجلاله ولذلك صمدوا أمام كل الضربات القاسية التي يوجهها إليهم الأعداء.

ضربات قاسية كان من آخرها اغتيال المجاهد القوي، الصابر الذي نحسبه كان صادقاً كلَّ الصدق في جهاده «عبدالله عزام». كان استشهاده شديد الوقع على نفوس المجاهدين.. حزنوا.. وبكوا، وأحسُّوا بفظاعة الخطب، فماذا صنعوا؟

هل استسلموا للحزن والبكاء؟.. هل يئسوا مما أصابهم؟.

كلا..

لقد حزنوا وبكوا، ولكنه حزن المؤمن المحتسب.. حزن من يبكي ولا ييأس ولا يعترض على قضاء ربه.

ولذلك فقد قاموا بعملية جريئة تؤكد عزمهم على المضي في طريق الجهاد، حتى يحقق الله لهم النصر، أو يختارهم شهداء في سبيله.. إنها «عملية عبدالله عزام» على كابل التي روعتْ الأعداء، وأكَّدت لهم أن جنود الحق لن يتراجعوا مهما كبرت في طريقهم الصعاب؛ يقول الشيخ محمد يوسف عباس عن هذه العملية في افتتاحية العدد الرابع والثمانين من نشرة «لهيب المعركة»: «فالذين فقدوا شيخهم وقائدهم عافت

نفوسهم الحياة بعيداً عنه، فلابد من أن يشفوا صدورهم من عدوهم، ولا يكون ذلك إلا بحسم المعركة في كابل وتدمير جميع مراكز العدو فيها، فبدؤوا بدار الأمان وهي عبارة عن قواعد الصواريخ «سكود والموشاك» وبيوت الخبراء الروس، وكانت موفقة جداً، إذ استطاعت أن تسكت قواعد الصواريخ وتقذف الرعب في قلوب الشيوعيين حتى تركوا قواعدهم في بغمان».

هكذا تكون بركات الاستشهاد.. دم يتدفق في سبيل الله، يفوح مسكاً، يشعل في نفوس المجاهدين لهيب العزم والتصميم على المضي قدماً في دروب الجهاد.

إذا مات منا سيد قام سيد ... قؤولٌ لما قال الكرام فعولُ

قراءة في عيني كابل:

يا يد الفارس لا ترتعدي ... لَفَظَ الموج بقايا الزبدِ
رجع الليل على أعقابه ... وانتهت أسطورة المستعبدِ
سقط الباطل في حفرته ... وتوارى وجهه عن بلدي
هذه كابول هذا ثوبها ... نفضتْ عنه غبار الكمدِ
أبصرتني مقلتاها بعدما ... غسلتْها من بقايا الرَّمَدِ
هذه كابول في نظرتها ... من جنون الشوق ما لم أعهدِ
وقف التاريخ في شرفتها ... منشداً، أكرمْ به من منشدِ

وقفة مع الإعلام الغربي:

أخبار الجهاد الأفغاني.. وأخبار الانتفاضة الفلسطينية المباركة تحظى بقدر كبير من العناية في وسائل الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة في بلاد الغرب.

ومن يستمع إلى إذاعة صوت أمريكا، أو يقدر له أن يشاهد نشرة الأخبار في التلفزيون الأمريكي أو البريطاني أو الفرنسي، فإنه سيقف مشدوهاً أمام ذلك التركيز على هذين الفجرين المنبثقين.. فجر الجهاد الأفغاني وفجر الانتفاضة. وهو تركيز لا يخلو ـ غالباً ـ من محاولةٍ لتشويه الصورة في أذهان الناس.

ومن صور ذلك التشويه ما يلمحه المتابع من تركيز على الأخبار العسكرية التي تفيد أن المجاهدين أسقطوا ـ مثلاً ـ طائرة إمداد عسكريّ أو غذائي للجيش الأفغاني.. أو دمروا شاحنة نقل للأغذية ومواد للإنقاذ، أو ما شابه ذلك.. وكأن ساحة الجهاد قد خلت من المعارك العسكرية الحاسمة.. ونحن لا نطالب الإعلام الغربي أن يقف في صف المجاهدين، ولا أن ينافح عن أبطال الانتفاضة، كلا فذلك أمر مستحيل.. ولكننا أردنا أن نلفت نظر القراء الذين قد يغفلون عن هذا الجانب، فيصدقون ما تنقله بعض وسائل الإعلام الغربي عن قضايا العالم الإسلامي.

لماذا غابت صحافتنا؟!

أتيحت لي هذا العام فرصة حضور ثلاثة مؤتمرات شبابية في أمريكا وبريطانيا.. مؤتمر رابطة الشباب المسلم العربي في أمريكا.. ومؤتمر اتحاد المنظمات الفلسطينية في أمريكا، ومؤتمر جمعية الطلبة المسلمين في بريطانيا.

وهي مؤتمرات حية، تميَّزت بكثرة الحضور وجدِّية الطرح للقضايا الفكرية والثقافية، وقد أُقيمت فيها محاضرات وندوات غلب عليها التأصيل الشرعي لكثير من القضايا الإسلامية المعاصرة.

وقد كان لجو هذه المؤتمرات سمة خاصة، وكان للّقاءات نكهة متميزة، يفوح منها أريج الأخوَّة الإسلامية الصافية.

وإذا كانت الأمور التي تلفت النظر في هذه المناسبة كثيرة، فإن من أهم الأمور التي لفتت نظري هو ما لمحتُه من خلو ساحة هذه المؤتمرات من مندوبي الصحافة في عالمنا العربي علماً بأن فيها مادة صحفية جديرة بالاهتمام..

لست أدري عن السبب الذي أوجد هذه الفجوة الإعلامية، ولكنني أرى أن صحافتنا تحمل قسطاً كبيراً من المسؤولية في هذا الجانب، لاسيما وأن إدارة الشؤون الإسلامية في سفارة

المملكة في واشنطن كان لها دور ملموس في مؤتمر أمريكا، كما كان لمعهد العلوم الإسلامية والعربية في واشنطن التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية دوره الكبير في تنسيق اللقاءات أثناء انعقاد المؤتمر.

كنت أتمنى أن أرى مندوبين لصحافتنا هناك.. ولكن الأماني تلاشت أمام الحقيقة.

هل لنا أن نطمع في أن تبذل صحافتنا هتماماً بهذا الجانب؟ ذلك ما نرجو أن يتحقق مستقبلاً.

مع التحية:

إلى الإخوة الذين أحسنوا الظن فيما كتبت عن الدكتور عبدالله عزام في يوميات الجزيرة أقول لكم: جزاكم الله خيراً.. ولكن ما قيمة حروفي أمام تلك اللغة الفصحى العظيمة التي كتب بها عبدالله عزام تاريخ الجهاد المعاصر.. أعني لغة الاستشهاد في سبيل الله .. لغة بذل الروح والمال والولد.. لغة البطولة والفداء.. إني لأخجل والله من عقد هذه المقارنة المستحيلة بين حروفي التي أكتبها بقلم مصنوع في اليابان وأنا على طاولة لا تخلو من أناقة، والحروف التي يكتبها الشهداء بدمائهم، أين الثرى من الثريا أيها الأحباب؟! وكيف تصبح المقارنة بين من يكتب من منزله وأمامه مدفأة تقيه برودة الشتاء، ومن يكتب من ميدان المعركة وقد كشفت الحرب عن ساقها، وتغبَّر وجهه بغبارها؟ شتان بين مُشَرِّقٍ ومغرِّبٍ.

روافد الأدب الإسلامي ... ورابطته

١٤١٠/٨/١هـ

الكلمة الطيبة كالشجرة... هكذا صورها القرآن الكريم، وزاد صورتها وضوحاً حين وصفها بأنها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وأنها تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربها..

والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة.. هكذا صورها القرآن الكريم.. وزاد صورتها وضوحاً حين وصفها بأنها تُجتثُّ من فوق الأرض، ما لها من قرار...

ومهما حاول الذوق البشري أن يصف الكلمتين فسيظلُّ عاجزاً عن الإلمام بما ألَّت به آيات القرآن.. كتاب الله الذي يُعَدُّ الرافد الأوَّل للكلمة الطيبة المباركة.

والأدب الإسلامي يستقي من هذا الرافد القرآني.. ويبني كيانه على أساسٍ ثابت من صفاء الكلمة، ونقاءالفكر.

كل هذه المعاني تداعت إلى ذهني وأنا أرى ذلك النشاط الأدبي القويّ المتزن الذي تقوم به رابطة الأدب الإسلامي، التي يرأسها الشيخ «أبو الحسن الندوي»، ويشرف على أعمالها في العالم العربي الدكتور عبدالقدوس أبوصالح.

وكان من آخر ما قامت به الرابطة من نشاط ثلاث ندوات حول الأدب الإسلامي، صحبها ثلاث ندوات شعرية شارك فيها عدد من الشعراء من أنحاء العالم الإسلامي. عقدت هذه الندوات في مصر في الفترة من ١٤١٠/٧/١هـ إلى ١٤١٠/٧/٤هـ، أولاها كانت في القاهرة، والثانية في جامعة الزقازيق، والثالثة في جامعة الإسكندرية، شارك فيها عدد من الأدباء من مصر، والسعودية، والأردن، وسوريا، والمغرب العربي.

وقد دار فيها حوار أدبي موضوعي نوقشت من خلاله فكرة الأدب الإسلامي، وأبعادها، وما تسعى إليه من تلاحم بين الشكل والمضمون في العمل الأدبي، متخذة من الرؤية الإسلامية الواعية مقياساً للنصوص الأدبية شعراً كانت أم نثراً.

وقد تحدث الدكتور عبدالقدوس أبوصالح عن مسؤولية النقاد والأدباء نحو الأدب الإسلامي في هذا العصر، الذي كثرت فيه الاتجاهات الأدبية المسخَّرة لخدمة المذاهب الفكرية والسياسية المختلفة.

وأكد أن واجب الدعوة إلى الله عن طريق الكلمة الأصيلة الملتزمة المبدعة أمانة في عنق كل أديب مسلم، وقد أنشئت

رابطة الأدب الإسلامي لتحقيق ذلك، ولرفع ستار الغربة المسدل على الأدب الإسلامي في عالم اليوم.

وكان من أوائل من دعا إلى هذه الفكرة الشيخ أبوالحسن الندوي الذي وجه الدعوة لعدد من الأدباء الإسلاميين في أنحاء العالم، من جنسيات مختلفة إلى الندوة الكبرى التي أُقيمت في مدينة «لكنو» في الهند في شهر جمادى الآخرة عام ١٤٠١هـ، وفي هذه الندوة اتخذت توصية مهمة تتضمن إقامة رابطة عالمية للأدب الإسلامي.

وعُقدت الندوة الثانية في رحاب الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في شهر رجب عام ١٤٠٢هـ، والثالثة في رحاب جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في رجب عام ١٤٠٥هـ، حيث أكدت بلاد الحرمين الشريفين أنها تسعى دائما إلى تعزيز وتأييد ما يقوم على أسسٍ ثابتة من عقيدة الإسلام الشاملة.

ورابطة الأدب الإسلامي لم تقم إلا بعد دراسة مستفيضة، قام بها عدد من الأدباء والباحثين لما يجب أن تكون عليه، محدِّدين بذلك أهدافها، وموضحين موقفها من التيارات الأدبية الوافدة من الشرق أو الغرب، ولذلك فقد جاءت أهدافها واسعة شاملةً لكل العوالم التي يحلّق في آفاقها الأدب بجميع أصنافه وأساليبه.

فالرابطة تهدف إلى تأصيل نظرية الأدب الإسلامي من خلال الدراسة المستوعبة للأدب العربي قديمه وحديثه، وللآداب العالمية الأخرى، وبهذا يتحقق مبدأ عالمية الأدب الإسلامي انطلاقاً من عالمية الإسلام.

ومن أهدافها رسم منهج إسلامي مفصل للفنون الأدبية الحديثة كالقصة والمسرحية والسيرة الأدبية والتمثيلية المسموعة والمرئية، مع الحرص على إظهار الصلة القوية بين الأدب الإسلامي قديماً وحديثاً للرد عل المحاولات الداعية إلى الفصل بين أدب أمتنا في الماضي والحاضر، وهي محاولات ظلّت نشطة فترة من الزمن، متشكلة بأشكال مختلفة؛ فتارة باسم حرية الأدب، وتارة باسم قوميته، وتارة باسم معاصرته، وأخيراً باسم الحداثة وما وراء الحداثة، مما يدركه المتتبع الواعي.

وأخيراً ومن أهم أهداف رابطة الأدب الإسلامي تعريف الشعوب الإسلامية بآداب بعضها بعضاً بترجمة للنصوص إلى عدد من لغات الشعوب الإسلامية. ولم تغفل الرابطة الأدب الذي يهتم بقضايا المرأة المسلمة، مع الحرص على تشجيع نتاج الأديبات المسلمات.

وتقف رابطة الأدب الإسلامي طويلاً أمام أدب الأطفال واليافعين والشباب لرسم منهج إسلامي له.

وفي ظلّ هذه الأهداف يبرز اهتمام الأدب الإسلامي بالشكل الفني ويحرص على الجانب الجمالي في الأدب ، ويرى أن الإبداع في الصورة الأ دبية من مقومات الأدب الإسلامي المهمة، ويبرز ذلك في تعريف هذا الأدب بأنه: التعبير الفني الهادف عن الإنسان والحياة في الكون في حدود التصور الإسلامي لها.

فالفنّية شرط من شروط الأدب الإسلامي خلافاً لما يظنه كثير من الناس من أن الأدب الإسلامي لا يهتم بالجانب الفني، وأنه يقتصر على المواعظ والحكم الخالية من روح الإبداع.

ومن هنا كانت نظرة الأدب الإسلامي بعيدة المدى عميقة الجذور، فهو يحرص على الاستفادة من كل التجارب الأدبية الناضجة في أنحاء العالم، ولا يرفض أيّ شكل من أشكال التعبير مادام هذا الشكل محققاً لمدلول كلمة أدب وفن.

ولذلك فقد كانت الكلمات التي ألقاها الدكتور أحمد هيكل، والدكتور محمد مصطفى هدّارة، والدكتور محمد رجب البيومي، والدكتور حسن الهويمل، والدكتور عبدالباسط بدر في الندوات التي عقدت في مصر، مستوعبة لهذه الأهداف ومقنعة للجمهور الغفير الذي حضر تلك الندوات.. والذي طرح تساؤلات متعددة حول نظرية الأدب الإسلامي، ووجد

عليها إجابات مقنعة من المحاضرين.

وقد أقيمت على هامش تلك الندوات النقدية ندوات شعرية شارك فيها عدد من الشعراء، محمد التهامي، وعصام الغزالي، من مصر، والدكتور محمود إبراهيم من الأردن، والشاعر حسن الأمراني من المغرب العربي، وقد شاركتُ معهم في هذه الندوات بصفتي أحد أبناء المملكة العربية السعودية.

كما كان للأدب الإسلامي مشاركة في بعض أمسيات معرض الكتاب الدولي بالقاهرة كان لها صداها الكبير.

إنها خطوات ثابتة تخطوها رابطة الأدب الإسلامي، تحظى بالدعم المعنوي من الأدباء الإسلاميين في أنحاء العالم، وتجد لها ركيزة في بلادنا التي كانت سبَّاقةً في تقرير منهج الأدب الإسلامي في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

ولم يبق إلا أن تتجه صحافتنا لتكمل دور بلادنا الرائد في دعم هذا المنهج وفتح أبواب النشر أمامه حتى يصل إلى القراء.

وقفة مع الأندية الأدبية:

عُقد في الأسبوع الماضي مؤتمر الأندية الأدبية في نادي مكة الثقافي، وقد افتتح المؤتمر سمو الأمير فيصل بن فهد

الرئيس العام لرعاية الشباب وذلك يوم ١٤١٠/٧/١٥هـ. وإذا كنا على ثقة من أن المؤتمرين سيطرحون القضايا الإدارية والثقافية للنقاش فيها بموضوعية وصراحة، فإن ذلك لا يمنع من أن نوجه نداءً للقائمين على الأندية الأدبية أن يعيدوا ترتيب أوراقهم، ويراجعوا نشاطهم الماضي، في ضوء الأهداف السامية التي يقرها ديننا الحنيف، وتتكئ عليها سياسة هذا البلد الطيب، حتى لا يُمَكَّن من منابر أنديتنا إلا أصحاب الفكر النظيف من الأدباء والعلماء والمثقفين، وذلك أقل ما يمكن أن تقدمه الأندية الأدبية لمجتمعنا. والله الموفق.

*****

اعتزال أصحاب الغناء ومسؤولية المجتمع

١٤١٠/٣/٢٩هـ

الإنسان تتملّكه صفتان، تسيطران عليه وتسيّران حياته، وبحسب التوجيه لهاتين الصفتين يكون التوجُّه العام للإنسان... إما إلى طريق الخير.. وإما إلى طريق الشرّ.

أما الصفتان فهما.. النزوع إلى الخلود، والحرص على التملُّك؛ فما من أحدٍ من الناس إلا ويحرص على الخلود ويتفانى في سبيله، بل إن نشاطه في حياته مدفوع برغبته في الخلود.. وللخلود وجهان أبيض وأسود، وله معنيان بعيد وقريب... وبمقدار وعي الإنسان بمعنى الخلود يكون له منه نصيب. فإن كان ممن يسعى إلى الشهرة في الدنيا والخلود فيها؛ حرصاً على أن يظلّ اسمه بارزاً في حياته وبعد موته... لا يبالي في ذلك أن يكون هذا البروز في طريق الصلاح أو في طريق الضلال، فهو بهذا قد اختار وجه الخلود الأسود، ومعناه الأقرب القصير.

وإن كان ممن يسعى في حياته قاصداً وجه ربّه، محاولاً ـ قدر المستطاع ـ إخلاص نيته لله حرصاً على خلودٍ أبدي فيما

بعد هذه الحياة، لا يبالي ـ في مسيرته ـ أبرز اسمه أو اشتهر، أو أنه ظلَّ مغموراً لا يعرفه أحد.. كلُّ همه أن يحظى بالخلود الأبدي فيما بعد الحياة، فهو بهذا قد اختار وجه الخلود الأبيض ومعناه الأبعد الطويل.

وفي كتاب الله تعالى إشارات إلى هاتين الصفتين .. فقد ذكر الله في كتابه أن إبليس عندما أغوى أبانا آدم وأمنا حواء.. خاطبهما بهذين الصفتين.. النزوع إلى الخلود والحرص على التملك حيث قال لهما: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾[الأعراف: ٢٠]. فالشيطان يحاول أن يوقظ فيهما نزوعهما إلى الخلود ورغبتهما فيه.. وبذلك استطاع إغواءهما.

وفي موضع آخر يخبرنا ربنا أن الشيطان أغرى آدم بقوله: ﴿ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠].

أرأيتم يسميها شجرة الخلد ويصفها بأنها ملك لا يبلى، وقد استطاع الشيطان أن يصل إلى مراده من خلال هاتين الصفتين. ولو حاولنا أن نستقرئ تاريخ الأمم لوجدنا أن حياة أكثر العظماء من ملوك وعلماء وأدباء تكاد تقوم على هاتين الصفتين. والإسلام العظيم رعاهما.. ولكنه وجههما في الوقت نفسه توجيهاً أسمى، حيث ربط الخلود بالآخرة..

والحرص على التملُّك بالجنة وما فيها من نعيم مقيم، ثم رسم الإسلام صوراً مختلفة للرياء والسمعة والسعى إلى الشهرة الزائفة محذِّراً المسلمين منها، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنّ أوَّل من تسعَّر بهم النار عالم، وقارئ القرآن، ومجاهد قتل في الجهاد.. ولكنهم لم يبتغوا بأعمالهم إلا الخلود الأقرب القصير ذا الوجه الأسود؛ ولم يبتغوا بأعمالهم وجه الله تعالى الذي يتحقق من ورائه الخلود الأبدي.

وفي حديث يروى عن الرسول ﷺ يقول فيما معناه: «كفى بابن آدم بلاءً أنّ يعرف في خيرٍ أو شرٍ» ومعنى الحديث إن كانت شهرته شهرة شرٍ فقد تحقَّق هلاكه، وإن كانت شهرته شهرة خير فهو منها على طريقين، إما أن يكون قاصداً لوجه الله حريصا على التخلُّص من الرياء والسمعة فهو بذلك قد نجا، وإما أن يكون على عكس ذلك فهو من الهالكين.

عفواً قارئي الكريم...

فقد أردت بهذا التمهيد أن أصل - بموضوعية - إلى نتيجة مهمة وهي.. أن كثيراً من الناس الذين يدخلون إلى عالم الطرب والغناء قديماً وحديثاً يدخلونه - غالباً - طاعةً للهوى، وانخداعاً بما يرونه فيه من صورة للخلود القصير، ذي الوجه الأسود.. هذا الخلود الخادع الذي يزينه لهم عشاق اللهو

ومحبوه.. فيظلون يرفعون من شأن ذلك المغني وتلك المغنية، وذلك الممثل وتلك الممثلة.. ويلمعونهم إعلامياً.. ويفتحون لهم أبواباً واسعة للقاء مع الجماهير التي تميل مع الريح حيث تتجه.. ثم يصفونهم بالنجومية والعالمية فإذا بهم يعيشون في مثل الدَّوامة، وقد خيل إليهم أنهم نالوا الخلود وتحقق لهم تملُّك الحياة.. مخدوعين بما نالوه من شهرة زائفة.

ومن هنا ندرك أن النزوع إلى الخلود والحرص على التملك عاملان قويان من عوامل انجراف كثير من «أصحاب المواهب» الفنية في طريق «الفن المعاصر» بكل ما فيه من ضياع وانحراف.

والنتيجة فساد يغرق فيه هذا المخدوع وتلك المخدوعة، ثم يُغرقون فيه كثيراً من أبناء مجتمعاتهم، من المراهقين صغاراً وكباراً، حتى يكون ذلك سبباً رئيسياً في انقلاب كثير من الموازين.

والذي يجلس مع بعض ضحايا هذا الوهم يجدهم يعانون من أزمات نفسية داخلية مهما برزوا أمام الناس بصورة السعداء، وهنا أستشهد بتلك الكلمات المضيئة التي أدلى بها الداعية المسلم حالياً «يوسف إسلام» والمطرب البريطاني

اللأمع سابقاً.. حيث قال لبعض الصحفيين عندما سألوه عن سبب إسلامه وهروبه من عالم الغناء والطرب: «لقد كنت وأنا أغني للآلاف بل الملايين من عشاق فني في أوربا وأمريكا.. كنت أشعر بسعادة زائفة أثناء إقامة الحفلات الغنائية التي يحضرها الآلاف.. ولكن تلك السعادة تتلاشى تماماً عندما أخلو بنفسي لحظات لا يجلس معي فيها أحد.. وكنت أتساءل: هل خُلقتُ لهذا.. وهؤلاء الناس الذين يعشقون فني ماذا سيقدمون لي لو اعتزلت الغناء أو أصابني مرض مقعد.. أو افتقرت؟

وظل هذا الإحساس ينمو في نفسي حتى هداني الله إلى الإسلام، فتلاشى ذلك الألم الخفيُّ، وذقت طعم السعادة الحقيقية في اتجاهي إلى الله، بعيداً عن ضجيج الفن، وخداع الأضواء».

وما زالت ساحة «الفنِّ المعاصر» بمجالاته المختلفة تشهد ما بين حينٍ وآخر توبة أحد روَّادها ورجعته إلى الله وخروجه من كذبة النجومية ومن زيف الشهرة وخداع الجماهير.. فكم من ممثل تاب إلى الله، وممثلة عادت إلى رشدها وصوابها.. وكم في عالم الطرب والغناء من تائبٍ راجع نفسه فاستطاع بحسن القصد والتصميم أن يدرك أن الخلود الحقيقي ليس في

التلميع الإعلامي الخادع، ولكنه في التعلُّق بأهداب الحق ليتم للإنسان خلود لا موت بعده، يوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا شهرة دنيوية ولا وسائل إعلام ولا سواها ...

وقد أثلج صدري كلام نقله بعض الإخوة الثقات الذين التقوا العام المنصرم بالمطرب المغربي التائب إلى الله عبدالهادي بالخياط، وذلك في شهر رمضان المبارك بالمسجد الحرام بمكة المكرمة، حيث كان يعتكف متوجهاً إلى ربه راضي النفس هادي البال، بعد أن ترك عالم الضجيج والطرب والغناء.

قال لهم: «الآن عرفت، معنى إنسانيتي.. وذقت طعم السعادة التي لا تتحقق إلا لمن يتجه إلى ربه مؤدياً فرائضه، منتهياً عن محرماته، ثم قال: الشيء الذي يصيبني بالندم والحسرة هو شعوري بضياع خمس وثلاثين سنة من عمري في دنيا اللهو الزائف.. ثم تحدَّث عبد الهادي بالخياط قائلاً: أكبر همي الآن أن أعوِّض ما فات، وأن أجنِّد نفسي لخدمة الدعوة الإسلامية، فأنا أعرف أن هنالك عدداً غير قليل من إخوتي المغاربة ما يزالون مخدوعين بزيف البريق والشهرة الكاذبة في ساحة الفن «المنحرفة»، وسوف أحرص كلَّ الحرص على دعوتهم إلى الله ليخرجوا من شقائهم إلى السعادة التي أشعر بها».

وفي هذه الأيام بلغنا خبر اعتزال المطرب المغربي عبدالوهاب الدوكالي، ثم علمنا أن ذلك كان بتأثير من أخيه عبدالهادي بالخياط.

ما أروع طريق الهداية وما أجمله!

هنا أقف لأتساءل.. ما دور المجتمع المسلم تجاه هؤلاء التائبين؟ أرى أن المجتمع يحمل عبئاً كبيراً تجاههم يمكن أن نشير إليه من خلال النقاط التالية:

* إظهار الفرحة بتوبتهم، والاتصال بهم لإعانتهم على أنفسهم وعلى الشيطان، ولفتح باب الخير أمامهم على مصراعيه.
* التعاون معهم بعدم إذاعة أو نشر أعمالهم الفنية سواءً أكانت أغاني، أم تمثيليات، أم غيرها، فهم لم يتوبوا إلى الله إلاَّ وقد تبرؤوا من تلك الأعمال، فلا يصح شرعاً ولا عرفاً ولا عقلاً أن نذيع أو ننشر أعمالهم التي يعتبرونها بعد التوبة أخطاء وذنوباً، والمسؤولية في هذا تقع ـ أول ما تقع ـ على المسؤولين في مجال وسائل الإعلام المقروءة، والمسموعة، والمرئية.

وقد روى بعض من التقوا بالمطرب البريطاني التائب إلى الله المسلم «يوسف إسلام» أنه قال: «أشد ما يؤذيني

ويؤرقني أن أرى أحداً يستمع إلى بعض أعمالي الغنائية المتبقية من عهد الضياع الماضي..».

وقد آلمني أن رأيت كاتباً في إحدى صحفنا المحلية يطلب من جهاز إعلامي ما ألا يذيع أغاني المطرب المغربي التائب عبدالهادي، ثم نفاجأ في مساء ذلك اليوم بإحدى أغانيه تذاع.. وتساءلتُ عندها:

لماذا نصنع ذلك، ونحن هنا في بلاد الإسلام في هذه الجزيرة الطيبة القائمة على شرع الله أحقُّ الناس بمساعدة التائبين إلى الله وتشجيعهم؟!

* يجب أن تنشر وتذاع أخبار توبة هؤلاء التائبين، وأن تجرى معهم اللقاءات ليتضح للناس مدى إيمانهم وصدق عودتهم ثم ليكونوا قدوة لغيرهم ممن خدعتهم أضواء البريق والشهرة الزائفة.

هذه كلمات أحببت أن أضعها بين يدي قرائنا الكرام، أردت بها أن أرصد ـ على عجل ـ هذه الظاهرة الرائعة، ظاهرة الرجوع إلى الله، في وقت كثرت فيه فضائح الوسط الفني، كما هو معروف لدى الجميع.

رســـالة:

إلى المكرم والد الطفل سامر سمير، الذي أرى الصفحات الفنية تدفعه هذه الأيام دفعاً إلى عالم الطرب والغناء، وتكيل له المديح والثناء لجمال صوته وحسن غنائه.. وهم بذلك يريدون أن يدفعوا به دفعاً إلى الهاوية التي يحاول أن يتخلَّص منها بعض من وقعوا فيها.

أقول للسيد سمير والد هذا الطفل... انقذ سامر قبل أن يغرق فيما غرق فيه سواه، ووجهه إلى حفظ القرآن وتجويده وترتيله لينال بذلك الخلود الأبدي عند الله.. إنها نصيحة من أخ يريد لك ولابنك الخير. والله من وراء القصد..

*****

مهلاً ... فإنَّ الكلمة أمانة

١٤٠٩/١٠/١٤هـ

مدخل:

أرأيتم تلك الساعة التي يتداخل فيها الليل مع النهار... ويتعارك فيها الظلام مع الضياء، فتنظر إليها العين نظرة الإعجاب بمن يرى متضادين ممتزجين، وتقف أمامها النفس حائرة إلى أي شيء تنسبها أإلى الليل فما ظلامها بدامسٍ ولا شديد، أم إلى النهار فما ضوؤها بصافٍ ولا مبين، أرأيتم تلك السَّاعة التي تختلط فيها الولادة بالموت، ويتعانق فيها النصر مع الهزيمة، فتحار النجوم لمن تحكم، وإلى من تنتمي، وقول من تصدِّق، وتظل تلك الحيرة ما ظلت تلك الساعة في نفوس النجوم، وفي قلوب العصافير التي تنتظر بزوغ الفجر، ولكنها لا تراه إلا بعد أن تعيش حيرتها في تلك الساعة العجيبة... نعم إنها عجيبة لأنها تقف بين متضادين وتمسك بين يديها طبقين، في أحدهما ظلام وفي الآخر ضياء، وبين هذين الطبقين تضيع حقيقة الأ مر ساعةً من الزمان.. بعدها ينكفئ إناء الظلام ويطفح إناء الضياء نوراً دافقاً يأتي إلى الكون ممتطياً صهوة الشمس، معلناً في وضوحٍ انتهاء ساعة الحيرة،

ساعة الامتزاج.. ساعة اختلاط الأشياء.. عندهاتعرف النجوم مصيرها فتغمض عينيها مستسلمة لقضاء الله.. وتعرف العصافير موقعها، فتنفض أجنحتها ثم تخرج من أعشاشها مغردة معلنة بدء الرحلة في طلب العيش، حيث تغدو خماصاً وتروح بطاناً. أرأيتم أيها الأحبة تلكم الساعة.. إنها مَثَل واضح لواقع الثقافة والفكر في عالمنا الإسلامي المعاصر.. حيث تضطرب الآراء وتتعدَّد الاتجاهات، ثم تبحث عن الحقِّ في ذلك فلا ترى إلا قليلاً مما تقرأ يمت إلى الحق بصلة، أما ما عدا ذلك فإنك لا تجد فيه إلا لتاً وعجناً، ومحاولة لتضليل الأفكار وإذابة حدود الفكر السليم والثقافة الأصيلة.

أليست مأساة أن تظل أمتنا الإسلامية في عصرها هذا، تتخبط زمناً طويلاً في مواقفها من حملة الفكر والثقافة فيها، فلا تستطيع في ظلِّ هذا التخبُّط أن تحكم على مفكر منحرفٍ بالانحراف، ولا على مثقفٍ مريض الثقافة بالضياع؟

أليس مؤلماً أن يظل في مفكري أمتنا ومثقفيها مَنْ يرفع عقيرة قلمه ممجِّداً لكاتب ما، أو مفكر ما، بالرغم مما أثبتت الأيام من انحراف ذلك الكاتب، وضلال هذا المفكر؟.

هل توقفت عجلة الثقافة عند كاتب أو مفكر بعينه..؟ وهل

يليق بنا - ونحن أمة تتحسَّس مواقعها في هذا العصر - أن نشغل أنفسنا بتبرئة ساحة كاتب أثبتت لنا أفكاره، وآراؤه أنه خصم للحق، عدوٌّ لفكر أمتنا الأصيل؟

بل هل يليق بنا - ونحن نسعى جاهدين في دروب الوعي - أن نبقى حائرين مضطربين في تحديد طريق النجاة لثقافتنا وفكرنا؟

شيء يثير الدهشة ويزعج نفس الغيور.

لا بأس أن نحدِّد ملامح ما نود أن نقوله هنا، وذلك بضرب بعض الأمثلة التي تضع أيدينا على الداء.

ما تزال تطالعنا بين الحين والآخر كتابات حول بعض الشخصيات الأدبية والثقافية التي أسهمت بدورٍ ما في وضع إطار ثقافتنا المعاصرة، فهذا يكتب عن طه حسين، وذلك عن العقاد، والآخر عن أحمد أمين، وغيرهم.. عن أحمد لطفي السيد. . ثم نرى من يكتب عن الطهطاوي ولا نعدم كاتباً يكتب عن الرافعي. . وآخر عن سيد قطب.. إلى غير ذلك من الأسماء الأدبية والثقافية التي لمعت وعرفها الناس.

والأمر هنا طبيعي لا يثير دهشة ولا يدعو إلى استغراب.. ولكن الذي يثير الدهشة ما تلمسه وأنت تقرأ من قتامٍ يحيط

بالرؤية، فلا تظهر الحقيقة، وإذا ظهرت كانت محاطة بغبار كثيف من الاضطراب.

منذ فترة وبعض الأقلام تكتب عن طه حسين.. منها ما يمجّده ويجدّد له البيعة بلقب عميد الأدب العربي.. ومنها ما يجرّحه ويصفه بأوصاف التبعية للغرب، والخيانة لفكر الأمة وثقافتها، وبين هؤلاء وأولئك يحدث الاضطراب في ذهن الشباب المتلهّف إلى القراءة المتعطّش لمعرفة الحقيقة في كل ما يقرأ ...

ولقد دفعني إلى كتابة هذه السطور ذلك السؤال «الملتهب» الذي أطلقه شاب من شبابنا حديث عهدٍ بالقراءة شغوف بها أيما شغف.

قال: ما حقيقة طه حسين، ونجيب محفوظ..؟ أقرأ تمجيداً لهما، وإطراء منقطع النظير، ثم أقرأ في الجانب الآخر تعرية ثقافية لهما فأراهما بعد ذلك الإطراء والتمجيد صغيرين جداً؛ لأن من كتب عنهما معارضاً قد أوضح ولاءهما لفكر الغرب وثقافته، ويستطرد الشاب قائلاً:

لو كان الأمر مقتصراً على صغار الكتاب الذين يحلو لهم تناول اللامعين رغبة في اللموع لكان هيّناً.

ولكن المشكلة تتمثّل فيما نقرؤه لبعض الكتّاب الكبار والعلماء والشيوخ من تمجيد لمثل هذين الكاتبين. وسكت الشاب ثم قال: أين أضع قدمي؟ وكيف أستطيع تحديد موقفي؟. من أصدِّق ومن أكذِّب؟ ثم لزم بعد ذلك الصمت.

شيء مؤلم حقاً.. إننا نجني على هذه البراعم المتفتحة حينما نطلق لأقلامنا العنان ونجلدها بسياط عواطفنا لتتطلق في ميادين الصحافة، تسطِّر من الكلام ما يزرع شوك الحيرة في أذهان شبابنا المتطلّع إلى الحقيقة.

هنالك نقطة يمكن أن ينتهي عندها الخلاف لو سلم الأمر من العواطف والانفعالات. هذه النقطة تتمثل في وجوب اعتماد ما كتبه المفكر والعالم والأديب طريقاً للحكم على فكره وعلمه وأدبه، ولا شك أن فكر المفكر، وعلم العالم وأدب الأديب جزء لا يتجزأ من شخصيته.. لأنه يكتب للناس خلاصة ما يؤمن به من أفكار ومبادئ، وفي حروفه يظهر ولاؤه وبراؤه وتظهر حقيقة انتمائه.

فمثلاً ـ طه حسين ـ كاتب فارق الحياة وأفضى إلى ما أفضى إليه، هناك حيث يجد كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فارق الحياة وترك لنا كتباً متعددة هي خلاصة

فكره، وثقافته فيها يبرز اتجاهه، ومن خلالها تظهر قناعته، وفي سطورها وبين كلماتها تكمن حقيقة انتمائه.. ومادام الأمر كذلك فإن الواجب على الكاتب كبيراً كان أم صغيراً أن ينظر بموضوعية وأمانة إلى إنتاج طه حسين، وأن يدرسه دراسة واعية، ثم يصدر بعد ذلك أحكامه على فكر هذا الرجل وثقافته، وسيجد حينها أنه راعى الحق فيما صنع.. فلا يجد في نفسه غضاضة أن يحكم على هذا الكاتب بأنه كان مصاباً بداء التبعيَّة للغرب.. وكان مغرماً بمصادمة حدود الشرع الإسلامي في كثير مما كتب حتى واجه ربه.

وهنا يأخذ الحكم العدل مجراه.. فلا يصح عندها لمحبٍ لطه حسين أن يدافع عن فكره دفاعاً انفعالياً ويحكم له بالاستقامة الفكرية؛ لأنه يحبه، وذلك يصدق أيضاً على الجانب الآخر وهو أنه لا يجوز لكاتب عادلٍ أن يسيء إلى مفكر أو أديب بغير حق لأنه يكرهه وقد حذرنا القرآن من ذلك حيث قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وهذا منهج في الكتابة لا مثيل له، وعليه سار أكثر الكتاب والعلماء المنصفين من سلف هذه الأمة.

أما أن يأتي كاتب فيحكم على مفكر أوله بغير علم وبغير عدل ولا موضوعية فذلك لا يقبله العقل السليم، ولا يقره شرعنا الحكيم.

هنا أعود في انعطافٍ سريع إلى ذلك الشاب الذي أشعل أسئلته في وجهي حين قابلته.. مَن المسؤول عن حيرة هذا الشاب؟.

المفكرون والمثقفون الواعون هم المسؤولون عنه وعن أمثاله.

ولذلك كان لزاماً على كل عالم ومثقفٍ، كبيراً كان أم صغيراً، أن يتقي الله تعالى فيما يكتب وأن يلقي بعواطفه وميوله جانباً. لأنه يكتب لأجيال تبحث عن الحقيقة، وتفتش عن أرضٍ قوية تقف عليها في ساحة الثقافة العالمية المائجة.

ما الذي يضيرنا إن كانت الحقيقة تثبت أن طه حسين كان غربي الفكر والهوى، وأنه نادى إلى ذلك صراحةً وتبنَّاه عندما كان مسؤولاً يملك صنع القرار الثقافي بيده؟! ولماذا يدعونا إعجابنا بأسلوبه إلى تجاهل حقيقة فكره؟. ثم لماذا نرتكب جناية كبرى في حقوق أجيالنا الناشئة بما نطلقه من كلامٍ عاطفي نمجد فيه هذا الشخص أو ذاك؟!

إن الأمر يندرج على كل أديب أو كاتب أو مفكر انحرف عن مسار الحق.

فنجيب محفوظ شأنه في ذلك شأن طه حسين.. أدبه مطروح بين أيدينا وهو الميزان الدقيق في الحكم على فكره واتجاهه الثقافي، ذلك إذا كنا حريصين على الحق بعيداً عن التعصُّب الأعمى.

إن الكاتب المنصف لا يجعل الميزان في حكمه على نجيب محفوظ وأدبه وما ناله من تلميع، وما حصل عليه من جوائز، بل يلجأ إلى رواياته وقصصه ومقالاته ولقاءاته وتصريحاته، يدرسها دراسة مركزة، ومن خلالها يطلق أحكامه على أدبه وفكره، ولن يضير الأمة أن يصل الدارس إلى نتيجة صحيحة تؤكد تبعية نجيب نحفوظ للغرب فكراً وثقافة ومنهجاً، ولا يعني ذلك بحالٍ من الأحوال نفي الإبداع الفني عنه، وقل مثل ذلك عن غيره من الكتاب والأدباء والعلماء.

أيها الأحبة.. إن للكلمة أمانة، ولن نستطيع إنقاذ الساحة الثقافية في عالمنا الإسلامي من مرحلة «المابين»، مرحلة «الحيرة والاضطراب» إلا بوضع أسسٍ لثقافتنا تنبثق من إسلامنا العظيم. الذي يدعونا إلى المحافظة على الأمانة، وإن أمانة الكلمة لعظيمة فهل نحافظ عليها؟ أرجو ذلك...

عبد الله عزام ... في ذمَّة الله

١٤١٠/٤/٢٧هـ

كان صوت «أبي حذيفة» المجاهد السعودي هادئاً رزيناً، حين كان يحدثني هاتفياً من بشاور قائلاً: أبشرك أن الأخ المجاهد الشيخ عبدالله عزام قد نال ما تمنّاه.. فقد قتل قبيل صلاة الظهر «الجمعة»، ومعه ولداه على إثر لغم فجَّر سيارته وشطرها نصفين.. إنها الشهادة التي كان يطلبها ـ إن شاء الله ـ.

حقاً.. إنه خبر محزن مفرح.. محزنٌ لأنه يتضمن نبأ فراق مجاهد مسلم، تغبَّر في السرايا، وبذل ماله ونفسه وولده في سبيل الله .. والفراق رهيب وصعبٌ كأنما تنتزع فيه الأرواح.. فراق الأحباب مؤلم.. إنه لهيب يحرق القلب. وفراق مثل «عبدالله عزام» أكثر إيلاماً.. لأنه يعني أنَّ الأمة الإسلامية قد فقدت بطلاً من أبطالها.. شامخاً شموخ الجبال الراسيات.. صادقاً ـ إن شاء الله ـ في توجُّهه إلى الله.. وفي جهاده.. واعياً في مسيرته، ينظر ببصره المؤمن إلى ما يدور حوله.

وإنه لخبر مفرح لأن أمنية «عبدالله عزام» قد تحققت به.. وإنها أمنية صادقة ظلَّ يتمنَّاها منذ أن وضع قدمه في

ركاب الجهاد في فلسطين، ثم انتقل إلى أفغانستان بنفسه وماله وأهله.. وإن الذي قدّر له أن يلتقي بهذا المجاهد البطل ليرى صورة « هذه الأمنية» بارزة في ملامح وجهه، وفي نظرات عينيه.

«عبدالله عزام» سنواتٌ من العطاء.. الجهاد.. التنقُّل بين جبهات القتال في أفغانستان.. سعيٌ دائب إلى الدعم المادي والمعنوي للمجاهدين.. إصلاحٌ بين فصائل الجهاد التي قد تحدث بينها نقاط خلاف، شأن أي جماعة في أي زمان ومكان.

قال لي في لقاءٍ أجريته معه في الرياض قبل أسابيع في مقر رابطة العالم الإسلامي بالرياض: «همُّنا الكبير ـ الآن ـ أن نخزن المواد الغذائية في الجبهات التي تحيط بكابل استعداداً للشتاء الذي تنقطع أثناءه الطرق، وتسد المنافذ على المجاهدين، وشغل المجاهدين في هذا الصيف الاستماتة للوصول إلى ضواحي «كابل»، حتى يتسنى لهم مواصلة المعركة في أحيائها الخارجية أثناء الشتاء تمهيداً للربيع القادم إن شاء الله».

ذلك هو همُّ المجاهد عبدالله عزام.. ولا أكتم الإخوة القراء أنني ـ حينها ـ شعرت بالتضاؤل أمام هذه الشخصية

المجاهدة.. شعرت بالخجل وأنا أستمع إلى همَّ «عبدالله عزام» الذي كان يشغل باله ويستغرق وقته، بينما أقصى همٍّ أحدنا عندما يأتي الصيف.. أن يفكر كيف يقضي إجازته، وفي أي المصايف يقضيها؟

لقد كان لجهود هذا الرجل دور كبير في مسيرة الجهاد الأفغاني.. يعترف بها قادة الجهاد جميعاً ويقدرونها، ويحبون هذا الرجل حباً جماً، لأنه لم يكن يدخر من وقته شيئاً لنفسه، بل كان يبذل ما في وسعه لدعم مسيرة هذا الجهاد المبارك.

والجهاد الأفغاني أيها الأحبة الذي عشقه عبدالله عزام مدرسة روحية عظيمة.. مدرسة إسلامية فريدة؛ لأنه حرك مشاعر الأمة الإسلامية إلى الأعلى.. كسر حاجز الخوف والتردُّد أمام أعين الأعداء.. مدرسة إيمانية جعلت من الشباب الذين كانوا ينشغلون بتوافه الأمور رجالاً - أبطالاً لا يخافون في الله لومة لائم.

ولهذا فقد حققت هذه المدرسة الإيمانية معجزة هذا القرن الكبرى؛ ألا وهي هزيمة الدولة العظمى «الجبروتية» روسيا... هزيمتها برغم طائراتها ودباباتها ومدافعها.. بل إن المبدأ الشيوعي قد اندحر وتراجع، وما يجري الآن في روسيا نفسها وفي بعض الدول الأوربية الشيوعية يؤكد هذا الانحدار

الكبير للشيوعية أمام مدرسة الإيمان.

وكان لعبدالله عزام - غفر الله له ولولديه وحقَّق له الشهادة التي أراد - دوره الكبير في بناء هذه المدرسة والحفاظ عليها، وتنظيم صفوفها.. وكان يبذل في سبيل ذلك جهوداً كبيرة يعرفها القريبون منه، ويشعر بها البعيدون عنه.

ونحن حينما نحزن على هذا المجاهد، ونبكي عليه وعلى فراقه، فإنما نستجيب في ذلك لنداء القلب الذي يحزن والعين التي تدمع لهول المصاب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا - إنا لله وإنا إليه راجعون -.

ولا تظنوا أيها الأحبة.. أن هذا المجاهد كان بمنأى عن الدسِّ والتشويه ووسائل التشكيك في نواياه وجهوده.. كلا.. فقد تعرَّض وخاصةً في الأشهر الأخيرة لمحاولات ظالمة من أعداء الإسلام، استهدفت تشويه صورة البطل المسلم حتى تحدَّ من قوَّة تأثيره في ساحة الجهاد.. وإن بعض الإذاعات الأجنبية قد خصصت برامج معيَّنة موجهة إلى أبناء أفغانستان، فيها طعن في الدكتور عبدالله عزام، وكذب صريح عليه بأنه يريد أن ينظم من المجاهدين العرب هناك حزباً يشارك الأفغان في السلطة، ويستولي عليها.. وهي

ـ وإن كانت محاولات خطيرة ـ لم تكن لتؤثر في نفوس المجاهد الأفغاني الذي يرى عبدالله عزام.. وأسامة بن لادن، وغيرهما من مجاهدي العرب المسلمين ينتقلون من خندق إلى خندق، ومن جبهة إلى جبهة تحت وابل من الرصاص، وللمتفجرات من تحتهم دويٌّ رهيب، وقد تحدَّث القائد المجاهد «عبد رب الرسول سياف» عن دور المجاهد العربي «تميم العدناني» في تصديه للأعداء وتعرضه للخطر بما يؤكد هذه الحقيقة، وتميم العدناني الذي مات قبل أسابيع بالسكتة القلبية ـ رحمه الله ـ كان ملازماً لعبدالله عزام، عوناً له في جهاده الصادق.

نعم تعرَّض هؤلاء لتشويه الأعداء، وذلك أمر معروف ومتوقع، ولكن الأمر الذي يبعث كوامن الألم في النفس.. أن يأتي مثل هذا التشويه من بعض المسلمين.. حيث يلقون بالتهم والأقوال جزافاً دون تحقيق أو تمحيص، ودون تطبيق لما أمر به الله تعالى من وجوب التثبُّت من الأخبار.

لقد كنت أقرأ في وجه «عبدالله عزَّام» ـ رحمه الله ـ الألم الممض، والحسرة الشديدة وهو يتحدث عن هؤلاء...

وكان من آخر الكلام الذي قاله لي: «إنَّه لأمر مؤسف ومؤلم أن أواجه بتهم باطلة ليس لها أساس من الصحة في

الوقت الذي كنت أنتظر فيه من الناس أن يسألوني عن أخبار الجهاد».

ولهذا فما كان ـ رحمه الله ـ يشغل نفسه ووقته بالرد على أولئك، وإنما كان يركِّز على بيان أمر الجهاد حتى قال: «قبل أن آتي إلى المملكة التقيت في (بشاور) بقائد الجبهة التي تحاصر كابل.. فقلت له: ما الذي جاء بك إلى هنا، وكيف تترك جبهتك وأنت تعلم أن الحكومة الشيوعية تعد العدة لمهاجمتكم؟ فقال القائد: يا دكتور عبدالله جئت أبحث عن الطحين، فلم يعد في مخازن الجبهة العسكرية غير كيسين من الطحين»، يقول الدكتور عبدالله معلقاً: «إنه لأمر مؤسف أن نرى بعض المسلمين ينشغلون بالأقاويل حول الجهاد وقادته، وينسون بذل العون لإخوانهم هناك». طحين.. نعم طحين.. يبحث عنه قائد جبهة كابل التي تقلق الحكومة الشيوعية العميلة وتقف على مشارف العاصمة الأفغانية تتهيأ لتحريرها من عملاء الشيوعية.. لله وجهك أيها المجاهد المسلم وهو يتفصَّد عرقاً.. ويحمِّر حزناً وأسفا وأنت تذكر لي ذلك.

لقد رأيت الدكتور عبدالله عزام في هذا اللقاء الذي تم من قبل في الرياض، وهو قلق على الجهاد يعد الساعات والدقائق شوقاً إلى العودة إلى هناك.

ولقد ذكر لي بقدر كبير من الراحة... سعادته باللقاء الذي تم بينه وبين أمير منطقة الرياض.. حيث تذاكر معه في هذا اللقاء شؤون الجهاد الأفغاني وكان مسروراً بنتائج هذا اللقاء.

وقد قال لي بالحرف الواحد.. إن المملكة العربية السعودية هي البلد الإسلامي الوحيد الذي يدعم الجهاد الأفغاني على كافة المستويات، كما عبَّر لي عن حبه العميق لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز الذي يبذل جلَّ وقته لخدمة الإسلام والمسلمين.

وسافر عبدالله عزام.. رحل إلى عرينه.. إلى روضته التي يحبها روضة الجهاد في أفغانستان.. سافر وقد طلَّق الدنيا ثلاثاً.. وكان شوقه إلى ساحات الجهاد قوياً وعارماً.. سافر وكانت نفوسنا معلقةً بالأمل في أن نلتقي به مرة أخرى.. الآن سافر السفر الأكبر.. رحل عن الدنيا بجسمه، وقد رحل عنها بقلبه من قبل، ومعه ولداه الصغيران إنها الشهادة ـ إن شاء الله ـ نالها المجاهد الذي صدق ما عاهد الله عليه.. وأملنا أن يجمعنا الله به في مستقر رحمته.

موت الشهيد حياته، وحياتنا

في لهونا الفتّاك عنوان الرَّدَى[1]

وأخيراً أقول: سُحقاً للجناة الظالمين، فإن الجهاد باقٍ، وإن جولة الباطل ساعة، وجولة الحق إلى قيام الساعة.

*****

(١) من قصيدة في رثاء الشهيد أحمد عبد الله الزهراني .

إنه السلوك الحضاري

١٤١٠/٤/٤

يثلج صدرك.. يحملك على أجنحة الفرحة.. يطير بك في آفاق الصفاء، أنْ ترى فتاةً مسلمة تعتز بإسلامها.. تقف به شامخة في وجه كل دعوة مغرضة تدعو الناس إلى الذوبان والضياع...

رائع أن ترى فتاةً مسلمة تقف في تحدٍ قوي أمام من يريدون تحطيم مستقبلها العلمي والديني إذا لم تتخلَّ عن حجابها.

هذا ما حدث في الأيام الماضية عندما حاول ناظر مدرسة فرنسية في باريس أن يجبر - بكل تعنُّت - الفتاة المسلمة المتحجبة فاطمة شعيون وأختيها ليلى وسميرة على نزع الحجاب عن رؤوسهنَّ، مخالفاً بذلك ما تنادي به بلاده (فرنسا) من مراعاة لحقوق الإنسان وحرية الأديان - كما يزعمون -.

ونحن هنا لن نناقش موضوع ما يسمَّى الآن «بالحجاب الإسلامي» الذي انتشر في أنحاء العالم وهو حجاب تغطي به

المرأة شعر رأسها فقط. وهل هو الحجاب المأمور به أم لا.. وهل يصح أن يوصف بأنه الحجاب الإسلامي، مع ما نعرفه من أن الحجاب الإسلامي يتمثل في أن تدلي المرأة جلبابها على رأسها، وأن تغطي به وجهها وصدرها.

لن نناقش هذا الموضوع الآن، ولكننا سنناقش تلك الهجمة «العلمانية» الشرسة على الإسلام التي تشنها الصحافة الفرنسية هذه الأيام، أتدرون لماذا؟ لأن ثلاث فتيات مسلمات أتين إلى المدرسة محتشمات يرتدين ثياباً طويلة ويغطين رؤوسهن.. يفعلن ذلك تطبيقاً لما أمر به الشرع الإسلامي من الاحتشام والستر.

واجهتهن المدرسة بالرفض القاطع لهنَّ إلا إذا خلعن حجابهنَّ.. وهنا يبرز جوهر الالتزام عند المسلم.. هل يطيع الناس في معصية الله.. هل يهتزُّ وينهزم نفسياً وفكرياً أمام أولئك الحاقدين؟

فاطمة وأخواتُها كن مؤمنات تمام الإيمان بأن حجابهنَّ أمر شرعي لا مجال للتخلِّي عنه مهما سخر منهن الساخرون، ومهما هاجمهن الحاقدون.. وهذا الموقف وحده يكفينا دليلاً على عظمة ديننا حينما يصوغ عقول أتباعه ويبني نفوسهم.. دين لا يعرف الضعف ولا الانهزام.

انتقلت هذه القضية من المدرسة إلى وزارة التربية، ومنها إلى وسائل الإعلام والصحف الفرنسية وبعض الصحف الأوربية الأخرى.. ونفثت أفاعي العلمانية سمومها.. حيث برزت في الصحف عناوين كبيرة تنال من الإسلام والقرآن والرسول ﷺ.. وتصف الإسلام والمسلمين بالتزمت والتخلُّف وعندما تبحث عن السبب وراء كل ذلك تجده تمسُّك ثلاث فتيات مسلمات صغيرات بحجابهن.. ثم نتساءل هل يليق هذا بمن يدعون أنهم يناصرون الحرية.. والديمقراطية؟

وتجد نفسك أمام سؤال آخر.. لو أن فتاة نصرانية أو يهودية أو لا دينية، دخلت المدرسة مغطية رأسها ومرتدية ثوباً طويلاً، أفكنّا نرى مثل هذه الضجة التي أقامت فرنسا ولم تقعدها إلى الآن؟

كلاَّ.. ما كنا لنرى ذلك.. أمَا والأمر يتعلق بفتاة مسلمة فإنه يختلف؛ لأنها لا تصنع ذلك برأيها، وإنما تطبق ما أمرها به الإسلام من الاحتشام.؟

نعم هذا العملاق الذي يزعج دعاة الانحلال والكفر في العالم كلّه... ويجعلهم متأهبين دائماً لحربه وتحطيم معنويات أبنائه ذكوراً أو إناثاً.

لا بأس عندهم أن تدرس الفتاة المسلمة المهاجرة في مدرسة فرنسية فإن ذلك يساعد على تلقينها مبادئ العلمانية الزائفة.. ولكن هذه الفتاة تصبح خطراً كبيراً عندما يبدر منها ما يدل على إحساسها بدينها وحرصها عليه.

القضية الآن تغلي غلياناً شديداً على نار الإعلام العلماني في فرنسا، وقد تشعَّبت وكثر الخلاف حولها.. وانطلقت من بين الأصوات المستنكرة أصوات هادئة تتحدث بلهجة فيها قدر كبير من الموضوعية، ومن بين تلك الأصوات صوت السيدة «دانييل ميتران» زوجة الرئيس الفرنسي التي قالت: إنني لا أرى جريمة في الحجاب، بل الجريمة أن تمنع طالبة من حقها في التعليم.. إلا أن الأصوات المعتدلة سرعان ما تتلاشى في خضم العنصرية المقيتة وأمام أصوات العلمانيين الحاقدين على الإسلام وعلى كل دين.

إنه العداء الحقيقي لديننا يبرز في كل اتجاه وعلى كلٍّ صعيد.

والذي يؤسف له أن بعض الأقلام العربية تناولت مثل هذه القضية.. ببرود حتى إن كثيراً من الصحف تعرضها على استحياء.. وبشيء من الخجل، وكأن الأمر لا يعنينا نحن المسلمين، بل إن بعض الصحف العربية والإسلامية قد تجاهلت القضية تماماً.

إن الغرب بكل مؤسساته وطوائفه واتجاهاته ينظر إلى الإسلام نظرة حقد وكراهية، فهم قد يسمحون بكل اتجاه فكري أو سياسي أن يبرز، ولكنهم يفقدون أعصابهم عندما يكون ذلك الفكر إسلامياً.. كل دعوة لحرية الرأي والفكر ينادون بها تتلاشى في أذهانهم عندما يرون مسلماً أو مسلمة يلتزمون بالإسلام منهجاً وسلوكاً، وفي قضية الحجاب التي ثارت هذه الأيام دروس كثيرة يمكن أن نفيد منها ومن تلك الدروس:

قدرة المسلم على المواجهة والصمود الحقيقي ـ الذي لا ادعاء فيه ـ أمام كل التيارات التي تحاول أن تجرفه، وذلك عندما يعرف هذا المسلم حقيقة دينه ويلتزم التزاماً صادقاً بهذا الدين.

ومن الدروس... أن معركتنا مع الأعداء ليست سياسية ولا عسكرية.. ولكنها معركة دينية يواجه فيه باطلهم الحقَّ الذي أنزل الله به كتابه وبعث به رسوله خاتماً للأنبياء والمرسلين عليه وعليهم الصلاة والتسليم.. حتى الغزو الفكري والثقافي الغربي للمسلمين لا يقصد من ورائه إلا تحطيم الشخصية الإسلامية القوية وتفتيتها حتى لا تقوى على مواجهة الباطل.

والمؤتمرات واللقاءات الاستعمارية والتبشيرية التي عقدت

وما تزال تعقد في أنحاء العالم تدل على ذلك دلالة واضحة.

ولنأخذ مثالاً على موقف الغرب من الإسلام ما جرى في أفغانستان، حيث ظلت بعض الدول الغربية تعبر عن استنكارها للغزو الروسي لأفغانستان وتؤيد دفاع المجاهدين عن بلادهم.. حتى إذا تحققت ـ بإذن الله ـ هزيمة روسيا أمام المجاهدين الصابرين رأينا تلك الدول الغربية وقد تحقَّق لديها عزم المجاهد المسلم على المضيّ قدماً لإقامة دولة الإسلام في أفغانستان، رأيناها تغيِّر لهجتَها من النقيض إلى النقيض.. ورأينا بعض الدول الغربية تقوم بدور الإرجاف داخل صفوف المجاهدين، باذلةً جهوداً كبيرة لتعطيل المسيرة خوفاً من قيام دولة إسلامية في أفغانستان المسلمة.

وقِس على هذا أمور كثيرة يمكن سردها هنا، ولا تخفى على كثير من أبناء المسلمين .

نعود إلى موضوع الحجاب.. وما حدث في فرنسا.. لنقول:

إن من الدروس التي تفيدنا في هذه القضية.. أهمية بناء الشخصية الإسلامية المحصَّنة من الداخل عند أجيالنا ذكوراً وإناثاً، بناءً تربوياً، ناجحاً وبهذا نستطيع أن نواجه العالم كلَّه بأفكاره ومذاهبه واتجاهاته دون خوف.

فإن نقطة الضعف في المسلمين اليوم - أكثر المسلمين - أنهم مهزومون من الداخل، والمهزوم داخلياً يظلُّ فريسة سهلة الاقتناص من قِبَل الآخرين.. ولولا تلك الهزيمة الداخلية، لما رأينا من مفكري المسلمين من يتحمَّس لفكر منحرف يستورده من شرق أو غرب، ولما رأينا من أدباء المسلمين من يستميت في الدفاع عن مذاهب واتجاهات أدبية مناقضة للإسلام مناهضة له، ولما رأينا فتاةً مسلمةً تخلع حجابها، وتتخلَّى عن حشمتها باسم التحرر والاستقلالية، لولا تلك الانهزامية لما رأى أحدنا فتاةً مسلمةً واحدة تتخلَّص بضجر شديد من زيِّها الإسلامي المميَّز، بمجرد انتقالها من مجتمعها إلى مجتمع غربي...

البناء الداخلي للشخصية المسلمة ضروريٌّ جداً في هذا العصر بالذات؛ لأن الذوبان حدث لكثير من المسلمين، وما كان ليحدث لو بنيت شخصياتهم من الداخل.

وفي قصة الفتيات المغربيات المحجبات - موضوع هذه المقالة - دليل كبير على ذلك.

فقد أشارت وسائل الإعلام إلى موقف والدهم من القضية حيث رفض الأب - بدون تردُّد - أن يجعل بناته يخضعنَ لمطالب ناظر المدرسة الفرنسية، رفض ذلك وهو شامخ الرأس، لأنه قد عرف كيف يبني الشخصية الإسلامية

داخل نفوس بناته. كما رفضت ذلك أمهنَّ المسلمة الملتزمة.

اسمعوا إلى ما تقوله ليلى للصحفيين وهو ما قالته من قبل لناظر المدرسة، قالت: «إن من حقي ارتداء الحجاب، وسأستمر في ارتدائه مدى الحياة؛ لأنني أشعر براحة نفسية عندما أتقيَّد بتعاليم ديني الإسلامي الحنيف».

أتدرون كم عمر ليلى هذه؟.. عمرها كما أشارت إلى ذلك وسائل الإعلام ثلاثة عشر عاماً.. ابنة ثلاث عشرة سنة تقول هذه الكلمات العظيمة وتقف هذا الموقف القوي الذي أثار ضجة كبرى ليس في فرنسا وحدها، ولكن في العالم أجمع؟!

لماذا قالت ليلى شعيون هذا القول؟ لأن أباها قد عرف كيف يبني شخصيتها الإسلامية من الداخل.

إنها رسالةٌ ـ لا ككلّ الرسائل ـ تبعثها ليلى إلى كل فتاة مسلمة مهزومة، من الداخل تسعى بغير بصيرة إلى تقليد نساء الغرب، وتقتل وقتها باللهو والاهتمام بالأزياء والمساحيق.. تقول ليلى لهنَّ هاأنذا برغم صغر سني أتحدَّى العالم كلَّه، بمحافظتي على تعاليم ديني الذي حفظ لي كرامتي، ورفعني عن كل دنس.

ما أروعها من رسالة... وما أروعه من التزام!

*****

جرجي زيدان
وحقائق التاريخ الإسلامي

«جرجي زيدان في روايته عن تاريخ الإسلام تشويه لحوادث العرب في الإسلام.. ونقل للروايات بلا تعليل ولا مقايسة».

هذه الجملة أطلقها منذ زمنٍ بعيدٍ الكاتب «معروف الأرناؤوط»، منبِّهاً إلى خطورة المنهج الذي سلكه جرجي زيدان في كتابته لروايات تاريخ الإسلام.

ومع ذلك فقد ظل «جرجي» يكتب، ورواياته تُنشر بطريقة عجيبة مثيرة للتساؤل.

وقد حدثني أستاذي الدكتور «عبدالرحمن رأفت الباشا» ـ رحمه الله ـ أنَّه اشترى تسعاً من روايات تاريخ الإسلام لجرجي زيدان بثلاث ليرات سورية عام ١٣٨٠هـ تقريباً.. وقال معلِّقاً.. إنَّ هذا السعر لا يغطي تكاليف غلاف واحدةٍ من تلك الروايات.

ومضت مركبة التشويه للتاريخ الإسلامي التي دفع بها جرجي زيدان إلى الأمام.. وزادها رواجاً أن بعض دور السينما

أخرجتها في أفلامٍ سينمائية وتلفازية دون تنقية لها.. بل عرضت على حالها، مما أساء إلى التاريخ الإسلامي إساءة كبيرة.

وحتى لا نخرج عن طريق الموضوعية نقول:

مما لا شك فيه أن جرجي زيدان قد سلك طريقاً جديداً في عرض أحداث التاريخ الإسلامي.. وهو طريق الرواية الفنية، مستفيداً بذلك من الرواية في الأدب الغربي.. ونحن نعلم أن في هذا المنهج تشويقاً للقارئ.. فهو بدلاً من قراءة أحداث التاريخ الإسلامي في أمَّهات الكتب على ما في ذلك من صعوبة وتعب.. يطَّلع عليها مقرونة بالتشويق الفني.. والإضافات الخيالية «الغرامية» التي تشيع في روايات جرجي زيدان.

ولكنَّ هذا السبق لا يجعلنا نغفل الحقيقة التي لا تقبل النقاش، وهي ذلك «السوء» ـ مقصوداً كان أم غير مقصود ـ في تلك الروايات.. وهو سوء لا يمكن السكوت عليه بحجة «السبق» الذي سجَّله جرجي زيدان في ميدان كتابة روايات التاريخ الإسلامي.

وهذا الرجل معروف المنشأ.. وخطواته الفكرية والثقافية

منقوشة على أرض الأدب العربي المعاصر.. وولاؤه لدينه النصراني واضح.. كما أن ولاءَه للماسونية واضح كذلك.

أما ولاؤه لدينه.. ومحاولته تشويه ما عداه من الأديان وخاصة دين الإسلام فظاهر في رواياته عن تاريخ الإسلام.

ظاهر في تتبُّعه لمواقف الخلاف ومناطق الظلام في التاريخ الإسلامي، وتجاهله لمناطق الضوء في هذا التاريخ العريق.. وإن عودة إلى روايته.. أرمانوسة المصرية، والأمين والمأمون، صلاح الدين، عذراء قريش، وغيرها لتؤكد ما ذكرناه.. حيث نرى في هذه الروايات الأديرة والكنائس تمثل مكان الأمان والاطمئنان.. بينما تمثل الدولة الإسلامية.. ومساجدها مكان القلق والخوف وموطن الخلافات، أما ولاء جرجي ز يدان للماسونية فهو واضح من خلال كتابه «تاريخ الماسونية»، الذي صدر عن دار الجيل في بيروت، وفيه يفتخر جرجي زيدان بانتمائه إلى المحفل الماسوني، ويدافع عن الماسونية ويرى أنها مكملة للدين، فهو يقول في صفحة (١٨١) من الكتاب: «فقد اتهم رجال الدين الماسونية بالكفر... أما نحن فمع إجلالنا هذه الجمعية عن تلك التهمة، ومع يقيننا أنها براء منها، لا يسعنا الإنكار أنَّ من بين أعضائها أفراداً قليلين ربما تصح عليهم تلك التهمة».

ويقول في مكان آخر من الكتاب: «ما برحت الماسونية من يوم نشأتها عرضةً لألسنة القوم يسلقونها بألسنةٍ حداد، وهي ـ بحمد ربك ـ راسخة الأصول، قويمة العماد، حليفة السداد».

وهكذا نرى كلاماً خطيراً عن جمعية إرهابية عالمية، تسعى إلى هدم القيم والأخلاق والأديان تحت شعار العدالة والحرية والإخاء.

إن ظاهرة «جرجي زيدان» تستحق أن نقف عندها طويلاً لبيان أبعادها وخطورتها.. خاصة وأنها تستظل ـ ظاهراً ـ بظل الإسلام .. وهذا ما يخدع عامة الناس وأصحاب الثقافة المتواضعة منهم.

ولسنا بصدد مناقشة الناحية الفنية في روايات جرجي زيدان؛ لأن المقام لا يتسع لذلك.. ولكن يمكن أن نقول – ونحن مطمئنون –: إن رواياته مفككةٌ مهلهلة من الناحية الفنية، وقد عبر عن ذلك الدكتور محمد يوسف نجم في كتابه «فن القصة»، حيث قال: «ويلجأ الكاتب إلى خديعة القارئ، فيربط أجزاء من قصته بسرٍّ يحتفظ به طوال القصة»، وهذا ما فعله زيدان في «عذراء قريش» وهي لعمري طريقة رخيصة، وخدعة غير مستحبة، وأسلوب مهلهل مفضوح في التشويق والمماطلة».

وأقول: ربما نعذر زيدان على هذا الأسلوب المفكَّك، لأن رواياته تعد تجربة أولى في مجالها.. ولكن ذلك لا يجعلنا نتقبل ما ورد في رواياته من تشويه لتاريخنا الإسلامي العريق.

هذا هو جرجي زيدان في تعامله مع حقائق التاريخ الإسلامي.. فما رأي القارئ الكريم؟

*****

لبنان المرابطين..
متى يندمل الجرح؟

١٤١٠/٩/١٥هـ

فاتحة:

القتلى، أربعمائة وخمسون ألفاً، الجرحى، ثمانمائة ألف حسب الإحصاء البريطاني، ومليون وخمسمائة ألف حسب الإحصاء الفرنسي. والمخطوفون اثنان وعشرون ألفاً، المفقودون اثنان وعشرون ألفاً. المعوقون ثلاثون ألفاً. المهجّرون تسعة عشر بالمائة من السكان. العاطلون عن العمل ثلاثة وعشرون بالمائة من السكان، والأيتام مائة وخمسون ألفاً.

هذه الإحصائيات تشمل الفترة من بداية الحرب إلى عام (١٩٨٨م) فقط، أي أن ما حدث بعد هذا التاريخ غير داخل في الإحصاء.

قامت بعمل هذه الإحصاءات مؤسسات عالمية، منها هيئة الأمم المتحدة بأمريكا، والمنظمة الدولية للدفاع عن حقوق الإنسان بجنيف، والجمعية البريطانية للدفاع عن الأقليات، والجامعة الأمريكية في بيروت، وبرنامج الخليج العربي لدعم مؤسسات

الأمم المتحدة الإنمائية، واللجنة الفرنسية لتنظيم الأسرة، والجمعية الكويتية لدعم الطفولة العربية.

وعندما نتابع هذه الإحصائيات بدقة، نجد أن معظمها من المسلمين؛ لأن حرب لبنان المدمرة قد دارت رحاها في مناطقهم على وجه العموم، بيروت، طرابلس، وصيدا بصفة خاصة.

هذه هي - أيها الأخ الكريم - مساحة الجرح اللبناني الغائر.. وإليك البيان:

أولاً: أعتذر إلى القارئ الكريم إن كنت قد أثرت شجونه بهذه الفاتحة المؤلمة التي بدأت بها مقالتي.. إنها مؤلمة حقاً، ولكنها حقيقة ماثلة للعيان لا مجال لتجاهلها، وكيف نتجاهل حديث الجرح النازف في لبنان المرابطين؟

لبنان المرابطين؟!.

نعم يحدثنا تاريخنا الطويل عن لبنان فيقول: «بعد الفتح الإسلامي للبنان (١٥هـ ، ٦٣٦م)، وإجلاء البيزنطيين عنه وعن سورية، بدأت محاولة البيزنطيين الجادة لاسترداده بالنظر إلى موقعه الاستراتيجي في المنطقة ، وجهز البيزنطيون أسطولهم البحري، ووجهوه نحو سواحل لبنان وبدؤوا بشنّ سلسلةٍ من

الغارات عليه واتخذت القيادة الإسلامية الفاتحة، والمؤلفة آنذاك من «أبي عبيدة بن الجراح، وخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان - رضي الله عنهم -»، اتخذت هذه القيادة التي كانت تحت إمرة أبي عبيدة قراراتها بشأن حماية الساحل اللبناني وتحصينه، فأرسلت مقاتلتها إلى الساحل الشمالي والأوسط، والجنوبي للمرابطة.

ولصد الغارات المتكرّرة وبذلك استقرت الجموع الإسلامية الفاتحة ومن ارتبط بهم في الفتح على الساحل اللبناني عموماً، وفي طرابلس وصيدا خصوصاً، وهكذا إذن كان وضع لبنان في تلك الفترة، وقد استمر التركيز الإسلامي على الساحل اللبناني، حيث رابطت عليه فرق من المسلمين، وظل التوسع في تطوير شأن هذه المرابطة قائماً، حيث ازدادت المساحة الجغرافية التي يرابط فيها المسلمون، واتجه أكثرهم إلى الفلاحة والزراعة، مستغلين في ذلك المناطق الجبلية.

وبالتتبع التاريخي لمواطن المسلمين في لبنان نجد أن المدن الرئيسية، وهي بيروت ، وطرابلس، وصيدا، هي الموطن الرئيسي لهم عبر التاريخ، علماً بأن لهم وجوداً وانتشاراً في سهول الشمال اللبناني وجباله، كالكورة، وعكار، والفنية، في الجبال القريبة من صيدا في جبل لبنان، وهي المنطقة المعروفة

الآن بإقليم الخروب، بالإضافة إلى مناطق البقاع، وبعلبك، وزحلة، والبقاع الغربي، وراشيا، وحاصبيا، على الحدود اللبنانية الفلسطينية.

هكذا يحدثنا التاريخ البعيد والقريب عن الوجود الإسلامي في لبنان، حيث يتضح لنا أنه بلد مرابطة على الثغور الساحلية في مواجهة الروم. لبنان المرابطين - هذا - الذي نرى أرضه غارقة في الدماء، ونرى صخوره وجباله وأشجاره كئيبة حزينة لما تراه من الأشلاء.

ولماذا كل ذلك يا لبنان؟

سؤال كبير... يمرق إلى قلوبنا كالسهم.. يبحث عن جواب، وأين الجواب؟...

ربما ظن بعضنا أن ما ينشر من تحليلات سياسية في أنحاء العالم يعد جواباً، ولكن الجواب يظل أكبر من كل ما يقال، وأعمق من كل ما يطرحه المحللون السياسيون في هذه القضية الشائكة.

أين الجواب يا لبنان المرابطين؟

لا بأس أن ننقب عنه قليلاً فلربما حظينا بشيءٍ منه..

اسم لبنان سياسياً لم يكن له وجود قبل عام ١٩٢٠م، وهو تاريخ إعلان الجنرال «الغورو» دولة لبنان الكبير، وكان قبل هذا التاريخ جزءاً من سورية يعرف بجبل لبنان، وموقع لبنان الاستراتيجي الذي قال عنه الأستاذ عبدالحليم زيدان في دراسته عن حاضر المسلمين في لبنان بأنه: يمثل بوابة العبور من وإلى الشرق الحالم بالمجد، والحافل بالفتوحات المتلاحقة، هذا الموقع جعل للبنان امتيازاً دولياً، فصار محطاً للأنظار ومقصداً للغزاة والفاتحين، من أمسك بزمامه فكأنما أمسك ببوابة المنطقة، وتحكم في الدخول والمرور والعبور...».

إذن فقضية لبنان قضية جانبية في ميزان القوى العالمية، وليس من باب المصادفات ما جرى له عبر التاريخ، بل إن شأن هذا البلد قد أهم المستعمرين ذات يوم، وحرصوا عليه كلَّ الحرص، ربما كانوا يفعلون ذلك وفي أذهانهم صورة المرابطين المسلمين في لبنان، تلك الصورة الناصعة التي ترعبهم، وتشعرهم باليأس والإحباط، ولربما نشأ في أذهان المستعمرين سؤالٌ يقول: مادمنا قد وصلنا إلى لبنان فلماذا لا نغرس فيه غاباتٍ من القضايا والمشكلات، حتى نهدم بناء المجد الذي ارتفع على أرض لبنان بفضل الله ثم بجهود المسلمين المرابطين على الثغور؟ كل ذلك ممكن وجائز الوقوع.

بل لقد وقع فعلاً، فعندما أعلن الجنرال «الغورو» دولة لبنان الكبير.. أعلن قيام دولةٍ مبنية على الطائفية، وحسبك بهذا جرحاً لا يندمل في جسد لبنان.

أتدرون كم عدد الطوائف في لبنان؟ يجيبكم عن ذلك الأستاذ عبدالحليم زيدان فيقول: «بلغ عدد الطوائف الدينية المسجلة رسمياً لدى الدولة اللبنانية سبع عشرة طائفة هي: الطائفة السنية، الطائفة الشيعية الجعفرية، الطائفة الدرزية، الطائفة العلوية، الطائفة الإسماعيلية، الطائفة المارونية، طائفة الروم الكاثوليك، طائفة الأرثوذكس، الطائفة الأرمنية الفريفورية الأرثوذكسية، الطائفة السريانية الكاثوليكية، الطائفة الشرقية السطورية، الطائفة الكلدانية، الطائفة اللاتينية، الطائفة الإنجيلية، الطائفة الإسرائيلية». (حاضر المسلمين في لبنان ص: ٤).

هكذا أصبح لبنان بعد أن أعلنت دولته الكبرى، وهنا اختفت من أذهان اللبنانين حقيقة بلدهم، لم يعد أكثرهم يتذكر ثغور الجهاد، ولا يعرف شيئاً عن المرابطين المسلمين، ولا يدري لماذا يثير لبنان اهتمام العالم، كل ما في الذهن أن تجارة لبنان قد راجت، وسياحته أصبحت مضرب المثل، وأصبحت تسمَّى عروس الشرق...

ومضت مركبة لبنان، مطابع، مزارع، ومعامل، ومكاتب، وفنادق، كل ذلك كان يجري بأسلوب مدهش مثير.. والناس داخل لبنان وخارجه، خاصة المسلمين، لا يرون إلا هذه الصورة البراقة للبنان، أما تاريخه، الجهاد الإسلامي فيه، المواجهات بين جيوش الإسلام وأساطيل الروم، فكل ذلك غائب عن الأذهان..

وبين الصحو والغفوة انطلقت أول رصاصة، وانفجرت أول قنبلة موقوتة، وتمرت إسرائيل التي تعرف تماماً معنى كلمة «لبنان»، وتحركت الطوائف المختلفة المتعددة، وهاج البحر وماج.. فكان ما كان من القتل والإرهاب الذي ما نزال نراه أمامنا كلَّ يوم، فهل لنا الآن أن نسعد بوعي جديد لدى المسلمين بلبنان المرابطين.. أرجو ذلك .

مراجع: المسألة اللبنانية من منظور إسلامي لفتحي يكن، ومسار الدعوة الإسلامية في لبنان للشيخ حسن خالد، وحاضر المسلمين في لبنان للأستاذ عبد الحليم زيدان.

*****

المخدرات بداية النهاية
"الوازع الديني .. والتحصين الداخلي"

التأثر والتأثير ظاهرة إنسانية عالمية.. لا يمكن أن تجد كياناً مخلوقاً في هذا الوجود بعيداً عن هذه الظاهرة.. بل إن إرادة الله تعالى قد شاءت لكونه الفسيح أن يقوم على ظاهرة التأثر والتأثير.. ثم هيَّأ لعباده من البشر الذين استخلفهم في هذه الأرض من العقول ما جعلهم قادرين على دراسة هذه الظاهرة والإفادة منها في بناء الحياة.

وعملية التأثر والتأثير خاضعة ـ في المجتمعات البشرية ـ لعوامل القوة والضعف حيث نجد التأثير من القوي على الضعيف.. وللقوة عند الناس جانبان؛ جانب ظاهر وآخر غير ظاهر.. فإذا اعترى هذين الجانبين أوأحدهما ضعف حدثت عملية التأثير عند الإنسان.

والتأثير له مراتب.. فقد يكون ضعيفاً مسطحاً، وقد يكون قوياً عميقاً، فإذا كان تأثر الإنسان عميقاً فإنه يقوده إلى مرحلة الاستسلام لما تأثر به والخضوع له.. وهنا تأتي أهمية بناء الشخصية الإنسانية القوية من الداخل.. حتى تتحقق لنا القوة الداخلية غير الظاهرة عند الإنسان.

والإسلام الذي دعا إليه كل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، بدءاً من نوحٍ وانتهاءً بمحمد بن عبدالله.. حرص كل الحرص على بناء القوة الداخلية عند الإنسان.. وهي ما نعرفه بقوة «العقيدة».

لماذا حرص الإسلام على ذلك؟

لأن القوة الداخلية (قوة العقيدة) تحصين للإنسان في خضمِّ ظاهرة التأثر والتأثير التي أشرنا إليها.. وهذا ما يجعلنا نرى أن السبب الرئيسي في انحراف كثير من الناس وذوبانهم في طرق الباطل والضياع إنما يأتي بسبب ضعف ذلك التحصين الداخلي «قوة العقيدة».

هذه المقدمة ـ قارئي العزيز ـ ليست خارجة عن إطار عنوان هذه المقالة.. بل هي في صميمها.. إذْ إن من أسوأ عوامل التأثير التي نشاهدها هذه الأيام.. «المخدرات» التي تسربت إلى المجتمعات الإسلامية في غفلة من هذه المجتمعات عن أهمية القوة الداخلية أو التحصين الداخلي «قوة العقيدة».

قد يقول قائلٌ.. إنَّ الوعي عند الإنسان أهمّ.. إذْ نجد إنساناً لا عقيدة له.. ولكن وعيه بضرر المخدرات جعله يتجنبها؟

أقول: هذا غير صحيح.. ولا هو بأمر مطرد يشكل قاعدة رئيسة.. بل هو أمر خارج عن القاعدة الأساس، فاقتران قوة الإنسان وثباته بقوة العقيدة الإيمانية أمرٌ معلوم قديماً وحديثاً.. بل هو أمرٌ مسلَّم به، وإليه نادى الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

العقيدة تعطيك إنساناً مطمئناً.. حتى لو خانه الوعي أحياناً، فإن استقرار نفسه من الداخل يعيد إليه وعيه أو يعيده إلى وعيه، والإيمان بالله والوعي متلازمان.. وإذا قصر الوعي أحياناً فإن الإيمان العميق يمد إليه يد العون وينقذه من تقصيره.

وهذا ما يجعلنا نؤمن إيماناً لا يتزعزع أن الصمود أمام هجمة المخدرات على مجتمعاتنا الإسلامية إنما يتم بالتحصين الداخلي، الذي يشكل الأساس الصحيح لوعي الإنسان المسلم بما يدور حوله، وعفواً ـ قارئي العزيز ـ إذا قطعت الحديث هنا لأشير إلى أن عنوان هذه المقالة إنما استعرته من عنوان الندوة الجيدة التي أقامتها جمعية النهضة بالرياض مساء يوم السبت ١٤٠٨/٧/١٧هـ والتي جرى فيها نقاشٌ طويل حول المخدرات، اشترك فيه عدد من العلماء والكتاب والمهتمين بهذا الجانب.

وحتى أكون دقيقاً في بيان تأثير هذه الندوة.. فإنني أعترف أنها قد دفعتني إلى كتابة هذه السطور لسببين.

أولاً: الرغبة الصادقة مني في الإسهام بإبداء وجهة نظري في طريقة مواجهة هجمة المخدرات الشرسة على المجتمع.. وقد أشرت إلى هذا قبل قليل، حيث إن التحصين الداخلي الذي أشرت إليه هو السبيل الأ هم في هذا الجانب.

ثانياً: الواجب المنوط بحَمَلة الأقلام في الإشادة بهذه الخطوات الإيجابية النافعة للمجتمع، التي تقوم بها بعض الجمعيات الخيرية.. وقد حدث في «ندوة المخدرات بداية ونهاية»، التي أقامتها جمعية النهضة ما أثبت لنا أن الخطوة كانت ناجحة، فالأسئلة التي كانت تَرِد إلى القاعة من قاعة النساء الأخرى كانت على قدر كبير من الأهمية.. إذ أبرزت لنا حاجة المرأة التي تعاني من مشكلة المخدرات في بعض أفراد أسرتها إلى توعية صادقة وتوجيه للحل السليم الذي يمكن أنْ تتبعه.. وإنْ كنت أرى أن هنالك تقصيراً حدث من الجمعية حيث لم تختر متخصصين في الجانب الإعلامي ممن لهم تجربة في مجال التوعية الإعلامية.. حتى يبرزوا للحاضرين الدور الكبير الذي ينتظر من وسائل الإعلام في دعم التحصين الداخلي عند الإنسان المسلم لمواجهة هجمة المخدرات وغيرها،

على أنَّ من الوسائل المهمة في مواجهة ذلك ترسيخ الشعور عند الناس بأن المخدرات مرض كأي مرض.. وأن هذا المرض قابل ـ بإذن الله ـ للعلاج، وأن أولياء الأمور نساءً ورجالاً إذا ذهبوا بمن ابتلي بهذا المرض من ذويهم إلى المستشفى فإنَّ ذلك لا يضير، بل هو واجب لابد لهم من القيام به.

وأعود إلى القول: إنَّ الهجمة شرسة وأيادي الشر في أنحاء العالم تديرها.. وإن التحصين الداخلي بالعقيدة.. وإحياء الوازع الديني أهم وسائل مواجهتها.. إلى جانب اليقظة المطلوبة من أولياء الأمور في متابعة أبنائهم.

حكاية:

كان يلفه ليله في ملاءة من النوم الهادئ الجميل.. لم يكن الرجل غنياً موغلاً في سراديب الغنى، ولم يكن فقيراً ملتصقاً بتربة الفقر.. ولكنه كان بين ذلك.. ملتزماً في حياته أجمل ما يكون الالتزام.. منذ أن عرف نفسه والفجر يسمع قرع خطواته إلى المسجد مكبراً مسبِّحاً لله.. ونشأ أبناؤه في بيته نشأة الصلاح والتقى.. وقد اطمأن إلى هذا الغرس الذي أنبته له الله نباتاً حسناً.. فرعاه وسقاه حتى استقام عوده كأحسن ما يكون النبات خضرةً وبهاءً ورواءً..

كم كان يسعد وهو يرى أبناءه ينطلقون في الصباح إلى مدارسهم بعد أن يرسموا على جبينه المشرق قبلات الحب.. والتقدير والعرفان.. وكم كانت تطفح سعادته عندما يطوف قبل نومه على مخادع أولاده يتفقدهم ويطمئن إلى أنهم قد أراحوا أجسامهم من عناء النهار.

سعيد ذلك الرجل كل السعادة.

وكبر الأولاد. ورأى ابنه الأكبر وقد أصبح ذا قامة طويلة وصوتٍ خشن.. وساعدٍ قويٍ.. وفرح بهذا الرجل الذي ثبتت خطواته في هذه الحياة.

ومرت الأيام، والأب يتيح لولده كل ما يريده .. ويغفل عنه في أمور كثيرة.. لا يعرف أصدقاءه.. ولا يدقق في سؤاله حين يطيل الغياب.

وجاءت ليلة ليلاء أوى فيها إلى فراشه.. فما أزعجه إلاَّ قرع شديد على الباب.. ثم خبر صاعق أنَّ ولده يتعاطى المخدرات.

وهرب بآماله إلى الكذب.. ولكن وَقَع ما وقع.. ودخل ولده المستشفى، وخرج كما كان من قبل.. صافياً تقياً.

يقول الولد: إن شيئاً في داخلي كان يرفض ما أنا عليه.. ولهذا فقد أنقذت نفسي وأصدقائي حينما بلَّغت عن حالتنا رجال الأمن.. وسكت الفتى.

ليمرَّ بعد شريطه أشرطة أخرى.. ولنؤمن إيماناً كاملاً أن الوازع الديني والتحصين الداخلي.. هما أساس النجاح في مواجهة كل بلاء.

من لاذ بالرحمن عاش حياته أمناً ويُسرا.

*****

طالت غفوتكم ...
أيها الكتاب الأشاوس

١٤٠٩/١١/١٦هـ

لن أعيد وأكرِّر العبارة التي نعرفها جميعاً وهي «أنَّ الأمة الإسلامية غفتْ غفوةً طويلة في الوقت الذي كان فيه عدوُّها يقظاً متأهّباً»، فهي حقيقة لا تقبل المناقشة والجدال.. ولولا هذه اليقظة من عدوّنا وتلك الغفوة من أمتنا لما تسلَّلتْ إلينا المبادئ الفاسدة والأفكار الضالّة، ولما لمع في سماوات فكرنا وأدبنا أذيال الغرب من أبناء أمتنا.

هي إذن حقيقة مرَّة علينا أن نتجرَّع مرارتها حتى نستطيع أن نضع مكانها حقيقةً أخرى تليق بمقامنا الوسط بين الأمم.

قارئي الكريم:

مازلنا نفاجأ بين الحين والآخر بأقلام تستيقظ، وكلمات تلتهب، ونواح وندب يتعالى، كل ذلك من أجل أنّ بعض الكتاب «الكرام»، والنقاد «الفضلاء»، من أبناء العرب يصحون من غفواتهم على صفعاتٍ فكرية وثقافية يوجهها بعض الأدباء والشعراء من أبناء هذه الأمة الجاحدين المتنكرين لثقافتها،

وفكرها.. ودينها قبل ذلك كلّه.

ومن ذلك مـــا نراه هذه الأيَّام من أقـــلام تنطلق من أقفاصها، لتنهش في غير ما هوادةٍ لحم الشاعر نزار قباني.. هذا الذي شتم العرب.. وهاجمهم.. وعاداهم في شعره.. وأصدر ديواناً يضم ذلك كله.

وإنك لتعجب كلَّ العجب من بعض أصحاب تلك الأقلام، إذْ تشعر من خلال ما يكتبون أنهم كمن كان في غفوة لا يرى معها حقائق الأشياء، ثم صحا ذات يوم وإذا به يرى من كان له مثلاً أعلى في الشعر يشتمه بشتمه لقومه العرب.. وهنا يمسك بقلمه ويكتب يشتم نزاراً ويسرد عيوبه وكأنه يراها لأوَّل مرَّة!

تعجب لهؤلاء الكتاب المستيقظين «نصف استيقاظ»، ثم تسألهم في وضوح وصراحة:

أين كنتم من نزارٍ منذ أن بدأ يهتك الأستار ويحطِّم حدود القيم والأخلاق في نفوس أجيالكم؟

بل.. لماذا وقف بعضكم خلف نزار مردداً ممجداً مادحاً، فترة طويلةً من الزمن..؟.. حتى إذا شتمه نزار ثار وغضب لنفسه فقط، فأخذ يشتم شاتمه؟

نزار هذا ـ أيها الكتاب الأشاوس ـ لم يفاجئنا نحن أبداً؛ لأننا نعلم علم اليقين أن الشيء من معدنه لا يستغرب، فلقد اتخذنا موقفنا منه منذ أن فتحنا عيوننا فرأينا أمامنا شعره المتفسّخ وأدبه الرخيص.. ومتاجرته بالكلمة.. منذ أن قرأنا له اعترافاته الفاضحة بشذوذه، وانحرافه السلوكي في كتابه عن حياته، وفي كتابه الذي روى فيه قصته مع الشعر.. اتخذنا موقفنا من نزار، فرفضنا أدبه وسلوكه، وعلمنا أنَّ مثل هذا النوع من الناس يمكن أن يقول كل شيء، لا يردعه حياء، ولا ترده قيمة من القيم.

وإني أسألكم «أيها الكتاب الأشاوس».

أين كنتم منذ بدأت مسيرة هذا الشاعر المتردية؟.

ألم تقرؤوا شعره الذي يحمل راية الفساد؟.

ألم تطَّلعوا على تمزيقه المستمر لشرف المرأة، وتحطيمه لكرامتها؟.

ألم تستمعوا إلى قصائده المغرقة في الانحلال؟.. ألم تصفقوا لها ذات يوم.. فماذا أيقظكم، وما الذي نفخ في أقلامكم روح الغيرة؟!

ألم تقرؤوا من قبل قول نزار عن القرآن بأنه شعر، وبأن

أجمل قصيدة قالها الله هي سورة مريم ـ أستغفر الله ـ.

ألم تقرؤوا ذلك في كتابه الذي أدخلتموه بيوتكم وأعجبتم بألفاظه وعباراته؟ أعني بذلك كتاب «الشعر قنديل أخضر».

ألم تشغلونا بنزار، وتؤذوا مشاعرنا الإسلامية به وبشعره فترة طويلة من الزمن، من خلال مقالاتكم، ومجلاتكم، وصحفكم، يا سبحان الله!..

ماذا أيقظكم؟.. لا تجيبوني فإنني أعرف الجواب.. لقد ثرتم على نزار لأنه شتمكم .. لأنه مسَّ العرق العربيَّ الثائر فيكم.. لأنه أساء إلى النعرة القبلية والنزعة القومية التي يتشبَّث بها بعضكم.. لذلك غضبتم .. أما أنْ يظلَّ نزار زمناً طويلاً بينكم يسيء إلى أخلاقكم، إلى فكركم، إلى دينكم.. وتصل إساءته إلى قرآنكم، فإنَّ ذلك لم يكن كفيلاً بإثارتكم.

هذه والله كارثة كبيرة.. نغضب لأنفسنا ولا نغضب لديننا وأخلاقنا!..

أعرف من بينكم من يمتدح الوجودية.. ويرفع من شأن سارتر وأمثاله.. وأعرف من بينكم من يمتدح أدباء الغرب المنحرفين، ويراهم قدوةً وما يزال يمتدحهم.. ولكنكم.. فجأة وبدون مقدمات تغضبون من نزار وتخرجونه من دائرة أمتكم..

علماً ـ أيها الكتاب الأشاوس ـ بأن (نزاراً) خارج من دائرة الأمة الإسلامية خلقاً وسلوكاً منذ أن بدأ يتاجر بالكلمة.. إني والله أشفق عليكم من هذه الصدمة شفقة العطوف على بني أمته، يصدمون في من يحبون.

ولكني أذكركم بأننا لم نصدم ولم نفاجأ.. ولكننا نعرف ـ بالرؤية الإسلامية الواضحة ـ مَنْ عدو أمتنا ومَنْ صديقها.

أيها الكتاب الأشاوس:

أنتم الذين رفعتم من شأن نزارٍ وأمثال نزار، ولمَّعتموهم، وجعلتموهم نبراساً لأجيالكم، فلا غرو أن يصدمكم رأيه في أمتكم، وشتمه لها.

أما نحن فإننا نشهد الله تعالى على بغض نزارٍ وأمثاله من التجار والحواة والمشعوذين.. لا نبغضهم إلا لله، بعيداً عن الأغراض الشخصية والمصالح الخاصة.

نشهد الله على بغض كل منهج منحرف عن جادة الطريق، ندين بذلك لله انطلاقاً من مبدأ الولاء والبراء في ديننا الحنيف.

وأقول لكم.. وطّنوا أنفسكم على المفاجآت ممن أسهمتم في تلميعهم من الأدباء والشعراء.. وإذا أردتم أن تريحوا نفوسكم فاجعلوا هدفكم نصرة الحق.. واجعلوا المنظار

الإسلامي وسيلتكم في رؤى الأشياء.. وأعيدوا النظر في المذاهب الأدبية التي وفدت إليكم بخيرها وشرها.. وارسموا لكم منهجاً إسلامياً في الأدب والنقد.

وعندها.. تريحون أنفسكم من هول الصدمات والمفاجآت...(*)

*****

(*) يلاحظ أن هذه المقالة كتبت قبل مفاجأة صدام بثلاث سنوات .

وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟

١٤٠٦/٧/٢٥هـ

هذه المشاعر المتدفقة.. هذا الفرح وذلك الحزن، هذه السعادة وذلك الشقاء.. الحب، البغض.. الأمل، الألم.. الخوف الرجاء.. هذا الإنسان الرزين الحليم، الوادع الهادئ.. تراه حيناً يثور ويغضب فإذا برزانته ترتديْ رداء التهوُّر، وإذا بحلمه يصطبغ بصبغة الجهل. هذا الوجه الصافي صفاء أديم السماء في يومٍ ربيعي جميل.. تراه في لحظة يغيم.. وإذا به يتحوَّل إلى سماءٍ مشحونة بالغيوم في يومٍ شتائيٍّ «يعمى ظبْيُه» كما يقول المثل.

هذه العيون التي تكاد تنطق بالصفاء إذا صفا قلب صاحبها.. وبالكدر إذا خالطه الكدر.. تكاد تبوح بالعشق والشوق والحنين.. بالخوف، بالتوسُّل، حينما تدوران في وجهِ حبيبٍ.

هؤلاء الأحبة من الناس يجتمعون فلا تسمع إلا كلمات الشوق.. وضحكات الفرحة.. ولا ترى إلا نظرات الارتياح.. ثم يأتي عليهم حين من الدَّهر، فإذا بك ترى نظراتهم تعبِّر عن

التذمُّر.. وضحكاتهم تصبح نوعاً من الابتسام الثقيل.. هذا التناقض الهائل في المشاعر والأحاسيس، هذه الأجهزة الدقيقة التي تتيح للإنسان هذا التنقُّلَ الرهيب من حالٍ إلى حال.

صديقك تأنس برؤيته لتقرأ في عينيه معاني الحب والصدق.. لتسمع في نبرات صوته لغة المحبة ولحن الأخوَّة، فترى في ذلك متعةً وأي متعة.. إنها المتعة التي عبَّر عنها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بقوله: «لولا ذكر الله وما والاه، ولولا إخوةٌ يلتقط طيِّب الكلام معهم كما يُلتقط طيِّب الثمر، لآثَرْت الموت على الحياة».. ذلك الصديق الودود.. لا تكاد تراه مرَّةً أخرى وقد عبث الوشاة بمشاعره وقلبوا مزاجه، حتى ترى شخصاً آخر كأنه لا يعرفك وأنت لا تعرفه.. تقرأ في عينيه علامات السخط والغضب، مع أنهما هما عيناه اللتان قرأت فيهما من قبل معاني الحبِّ والصدق، وتسمع في صوته ضجيج التنكُّر والتقريع، مع أنه هو صوته الذي سمعت فيه من قبل لغة المحبة ولحن الأخوَّة.

لماذا وكيف؟

هذه القشعريرة التي تسري في جسد الإنسان أحياناً، فيحسُّ أن كل خليّة من خلايا جسده قد اهتزَّت في مكانها..

كيف حدثت، وعلى أيِّ طريقةٍ سلكت خلايا هذا الجسم العجيب؟..

هذه الرعشة التي تحدث في جسد المحب عندما يرى حبيبه. وهذه الرجفة التي تهز الإنسان عندما يرى عدوه.

هذا الارتياح الخفيّ الذي يشعر به المسلم الحقُّ في صلاته عندما يقف بين يدي ربه خاشعاً صادقاً.

هذه الدموع التي تختلط مع الأمل والرجاء والخوف، في عيني عابدٍ لله طالبٍ لرضاه.

هذه النظرة التي تكون ـ حيناً ـ حباً وشوقاً، وحيناً بغضاً وحقداً، وحيناً عشقاً وغراماً، وحيناً عتاباً وملاماً.. وحيناً شكراً صامتاً وعرفاناً، وحيناً سخريةً واستهزاءً.

لماذا يحدث كل ذلك، وكيف؟..

هذا وغيره مما يجري في هذا الجسد الإنساني العجيب يوحي إلينا بشيء عظيم نعجز عن معرفة كنهه، وإنْ كان بإمكاننا أنْ ندرك آثاره ونعرف بعض أسبابه.

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾؟!

سؤالٌ يقتحم على الإنسان غرورَه وصَلَفَه، وغفلتَه

وضياعَه، يدخل إلى أعماق النفس الإنسانية ليذيب فيها جليد التنكُّر والجحود.

سؤالٌ يوجِّه عقولنا وقلوبنا إلى ذواتنا..إلى هذا الكيان البشري الهائل الذي نسير به في الحياة ونحن عنه غافلون..
﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾؟!

توجيه إلهي كريم إلى تلك المظاهر العظيمة المتمثلة في جسد الإنسان ونفسه وروحه.

العين ـ مثلاً ـ.. كلنا ننظر بها ونراها.. نتغنَّى بسواد رموشها، باتساعها.. بنظراتها الثاقبة.. بانكساراتها.. ولكنْ.. هل فكَّرنا مرَّة واحدة في تكوين هذه العين؟. هل فكَّرنا في جهازها الدقيق وشعيراتها المتشابكة التي تُعدُّ بالملايين؟. هل فكَّرنا في بياضها وحكمته، وسوادها وحكمته؟. ورموشها لماذا خلقت؟ وهذا اللمعان الذي فيها ما أسبابه؟ وما دواعيه؟.. ثم هل فكرنا بعد ذلك في خالقها ومبدعها؟.. إنَّ السؤال الوارد في القرآن الكريم يوجهنا إلى ذلك ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾؟!

الأنف ـ مثلاً ـ هذا الأشمُّ الأقنى.. هذا المصلت على صفحة الوجه كالسيف الصقيل.

شُمُّ الأنوف كريمة أحسابهم بيض الوجوه من الطراز الأوَّلِ

وأنفها كالسيف مصقولاً ...

هذا الذي يشمخ حتى أصبح علامةً على الشموخ.. ويخضع حتى أصبح علامة على الخضوع:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهمو

ومَن يُسوِّي بأنف الناقة الذنبا؟!

«رَغِم أنف امرئ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنَّة».

هذا الأنف.. هل سأل الإنسان يوماً عن حقيقة تركيبه؟ هل عرف ما يجري في داخله من عملياتٍ دقيقة تتيح للإنسان التنفُّس؟ هل أدرك الخلايا والشعيرات التي تتشابك في جيوبه؟

الأذن ـ مثلاً ـ هذا الجهاز الصغير الذي أوجده الله على هذه الهيئة من الالتواء والاستطالة.. والذي نسمع به كلَّ ما يدور حولنا.. صدقاً وكذباً، مدحاً وذماً، لحناً هادئاً، وضجيجاً وصخباً.. هل تأملناه تأملاً يحقق إجابة التساؤل القرآني الكريم.. ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾؟

هل علمنا مثلاً، أن الأذن تحتوي على خلايا وعروق لها مساسٌ ببقية أعضاء الجسم المهمة.. في الأذن خلايا خاصة بالقلب، والكبد، والطحال، والكلى، ومن هنا فقد أمكن أن

تعالج كثير من أمراض الجسم عن طريق الوخز بالإبر في «الأذن»؛ حيث يقوم الطبيب المختص بوضع الإبرة الدقيقة في الخلايا الموجودة في الأذن الخاصة بجهاز القلب إذا كان المرض في القلب.. وهكذا، وهذا ما تحدَّث عنه العلم والأطباء الذين يتقنون العلاج بهذه الطريقة وهم قلَّة في العالم.

هل عرفنا نحن البشر ـ في غفلتنا ـ هذه الأهمية الكبرى للأذن؟.. ثم هل تأمَّلنا بعد ذلك قدرة خالقها؟

الجِلْد... وما أدراك ما الجلد.. هذا الذي نراه بألوانه المختلفة والذي يتغنَّى الشعراء برقته في أجساد المنعمات الحسان، حتى إنَّ الذَّرَّ لو مشى على جلد إحداهن لأدماه!. والنسيم لو مرَّ على أناملها لجرحها.. وعلى خدها لأثَّر فيه.

خطرات النسيم تجرح خدَّيه ولمس الحرير يُدمي بنانَهْ

هذا الجلد هل عرفنا مقدار حساسيته.. وأهميته القصوى للجسم، فهو يشكل الأرضية الخصبة للحواس المختلفة في الإنسان، وقد عرف الطب الحديث أشياء مدهشة عجيبة في جلد الإنسان.. ففيه الخلايا التي تؤثر على كلِّ أعضاء الجسم.. وهو الذي ينقل الأوامر والمعلومات الدقيقة من وإلى المخ، وهو السبب المباشر في سريان الألم في نفس

الإنسان.. وكذلك اللذة.

ألا ترى أن اليد عندما تلامس اليد تكون سبباً في سريان موجات التأثر والانفعال أياً كانت صوره وأشكاله؟.. يقول الله تعالى في حديثه عن أهل النار عندما تنضج جلودهم فيها: ﴿ ... بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا ﴾ وهنا يتساءل الإنسان المتأمِّل لماذا خصَّ الله الجلد بهذا؟. وما أهميته هنا؟..

ويجيب عن ذلك الشيخ الفاضل «عبد المجيد الزنداني» من خلال بحوثه العلمية الرائعة.. بأن الله قد خص الجلد هنا بالذكر؛ لأنه الأرضية الدقيقة لعوامل التأثير.. فعن طريقه يكون الألم.. ولهذا فجلود أهل النار إذا نضجتْ فقدت خلاياها قدرتها على توصيل الألم إلى الجسد وإلى النفس، وفي هذه الحالة يفقد العذاب معناه.. ولكنَّ الله يبدلهم جلوداً غيرها لتقوم بدورها في توصيل الألم!

ولعلَّ هذا ما ندركه نحن في تعبيرنا المألوف عندما يُجرح الإنسان جرحاً عميقاً حيث يقول: أحسست أنه قد وصل إلى اللحم الميِّت.. إذْ إنه بعد تجاوز الجرح لطبقة الجلد الحساسة يصل إلى لحم ميت، ليس له خصائص الجلد المذهلة.

هذا هو الجلد الذي نتغنَّى ببياضه وسمرته.. فهل فكرنا

مرَّة في حقيقته العظيمة.. وهل فكَّرنا في عظمة خالقه ومبدعه.. والقرآن الكريم يوجِّه الناس إلى هذا الجانب توجيهاً متكرراً نظراً لأهميته، ولتأثيره الإيجابي على قلب الإنسان وعقله فيعرف نفسه على حقيقتها.

لو عرف الفصيح عظمة خلق الله في جهاز الكلام عنده.. اللسان والشفتين.. لما نطق بالباطل ليدحض به الحقّ.. ولما لبَّس الأمور على الناس بفصاحته سعياً إلى رغباته وأهوائه.

والله يمنُّ علينا في هذا الجانب فيقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾.

لو أمعن الإنسان النظر في بديع صنع الله من خلال أذنه.. لما أتاح لها مجالاً للتجسُّس على عباد الله سعياً إلى رغباته عن طريق إيقاع الضرر بهم ويندرج ذلك على كل أعضاء الجسد.

إن أعضاء جسد الإنسان تشكِّل عالماً كاملاً من الحياة والحركة.. تتضاءل أمامه كل القدرات البشرية التي أصابها الغرور وجنون العظمة، بعد أن تمكَّنت من صناعة آلات دقيقة، لا تسير إلا بطريقة «بدائية» إذا قسناها بأجسادنا.

من هنا أخبر الله تعالى أن كلَّ عضو يوم القيامة يشهد

على الإنسان بما صنع في الدنيا.. فاليد والرجل والعين والفم والأذن كلُّها تنطق أمام الله أداءً للشهادة الصادقة التي يتهاون بها كثير من الناس في زماننا هذا.

(وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ) ؟!

إضاءة قرآنية كريمة.. نحن بأمس الحاجة إليها في هذا الزمن المادي الذي أشغل الإنسان عن نفسه، وعن حقيقة دوره في الحياة.

لو فكَّر الناس في أمر الحياةِ لما

ضاقتْ جوانبها عنهم ولا ضاقوا

*****

جائزة نوبل ...
ومؤتمر المدائح النبوية

١٤٠٩/٣/٦هـ

مابال مركبة الزمن لا تتوقف؟ ما بال السماء لاتمطر عزةً وكرامة، ما بال الأدب العربي لا يقفز إلى الأمام ملايين الأميال متجاوزاً كل الحدود والحواجز حتى يمكن أن يوصف بأنه «أدب عالمي»؟

ما بال الحجر الفلسطيني لا يتجمد في يد ذلك الطفل، معلناً أن الأمة العربية قد وصلت إلى القمة؟ ما بال تلك الفتاة الأفغانية لا تصرخ في وجه أبيها المجاهد.. قف.. قف.. فإن «جائزة نوبل» قد اختصرت لك المسافة، وأراحتْك من قتال عدوك؟

ما بال «المسجد الأقصى» لا يتنفَّس الصعداء، وهو يرى جائزة نوبل اليهودية «الصهيونية» تتجه إلى مصر كما اتجهتْ من قبل؟

ما بال وما بال؟ أوَّاه من جور السؤال!

أيها الأحباب.. قفوا قليلاً.. لا تحجب الأتربة عنكم حقائق الأشياء.

أيها الأحباب.. أنتم ـ بأنفسكم ـ الذين كتبتم عن جائزة نوبل، عندما منحت للسادات مناصفة مع بيجن.. ووصفتموها بأنها صهيونية، متعصبة، حاقدة.

أنتم الذين أشرتم بالأمس إلى تاريخ الجائزة المظلم وإلى مواقفها المريبة.. فما بالكم اليوم تجعلون منها شمساً وقد كانت ظلاماً، وتجعلون منها عدلاً وقد كانت ظُلماً، وتجعلون منها إنصافاً وقد كانت إجحافاً؟!

ما بالكم تحرقون أوراقكم التي أعلنتم فيها خطورة جائزة نوبل عندما منحت للأديب الصهيوني «عجنون»؟، ياسبحان الله!.. هكذا في لحظة واحدة تتحول هذه الجائزة المريبة إلى شيء مدهش ورائع لأنها منحت لنجيب محفوظ.

عفواً أيها الأحباب، لا أناقش هنا أدب الرجل، ولا المضامين «الإقليمية» التي تشيع في رواياته وأعماله.. ولكن أناقشكم أنتم...

ما بالكم لا تتسون أسلوب التطبيل في كلِّ مناسبةٍ تُعَدُّ في الغرب، وتأتينا من الغرب؟

أعطيت «جائزة نوبل» لنجيب محفوظ، ماذا يعني هذا الأمر؟.

هل يعني أننا خرجنا من الأزمة؟. هل يعني أن نوبل قد صرخ في قبره قائلاً.. انتهى الدمار.. انتهت الحرب؟! هل أوقفت جائزة نوبل رصاص العدو عن صدور أطفالنا في فلسطين؟.

هل أعادت القدس إلينا، وصانت أعراض النساء المسلمات، ورحمت شيخوخة الكبار؟

هل أوقفت الجائزة عربات الدمار في أفغانستان؟

أيها الأحباب لا تنسوا مواقف نجيب محفوظ من عملية السلام «كامب ديفيد»، تلك المواقف التي صعقتم وانبريتم ـ أيامها ـ للحديث عنها، وكانت بالنسبة إليكم مفاجأة كبرى حين حدثت من «نجيب».

أنتم تعلمون أن «جائزة نوبل» ترتبط باتجاهات ومبادئ ثقافية معروفة، وقوى سياسية لا يمكن أن ترضى بمنح هذه الجائزة إلا لمن تشعر أنها تجني من ورائهم نفعاً.

أيها الأحباب، هكذا وقد كنا نظن أن عقولنا قد أصبحت في ظلّ الصحوة مدركة لخفايا الأمور، هكذا، بسرعة مذهلة

تقتلون الفرحة التي نشأت في أعماقنا، وتعيدون إلى نفوسنا الشعور بخيبة الأمل في صحوة عقولنا، لمواجهة الباطل مهما جاء متزيناً بزينة الحق.

ماذا دهاكم؟. لو أن عدوَّكم الإسرائيلي جاء إليكم مبتسماً ضاحكاً مصافحاً، أتراكم تصافحونه وتصالحونه، أتراكم تنخدعون بظاهره عن باطنه..؟.. ما هذا الضياع القاتل لا نكاد نرى بريقاً خادعاً من الغرب حتى يعشي أبصارنا ونهرول إليه في غير بصيرة ووعي؟!

في هذه الأيام عقد مؤتمر «المدائح النبوية» في الهند... مؤتمر أدبي إسلامي في ظاهره وباطنه.. ومع ذلك فإننا لم نقرأ عنه خبراً واحداً، نعم خبراً صغيراً في صحيفة من صحفنا.. مؤتمر يتعلَّق بالأدب العربي الإسلامي، ويعقد في الهند، ويحضره مئات الأدباء والشعراء من أنحاء العالم الإسلامي.. ثم لا نجد من يشير إليه أو يخبر الناس عنه.

وفي هذه الأيام تعلن جائزة نوبل أنها اختارت نجيب محفوظ، فتتحول أكثر صحفنا إلى صفحات دعاية لجائزة نوبل وتمجيد لها، ومدحٍ رخيص لتوجهاتها الجديدة «الخادعة».

ما هذه المفارقات التي تعيشونها أيها الأحباب.. وإلى متى يظل هذا الخلل في التفكير؟

جائزة نوبل.. تغطي أكبر المساحات من صحف العالم الإسلامي، ومؤتمر المدائح النبوية.. لا يحظى بسطرٍ واحد.. نعم لا يحظى بزاوية صغيرة جداً من صحافتنا!

أليس هذا مخيفاً ومرعباً؟ أليس هذا دليلاً على عقدة الأجنبي التي لا تزال تتلبسنا من رؤسنا إلى أخمص أقدامنا.

«نوبل لنجيب محفوظ نوبل للثقافة العربية» هذا عنوان مقال في إحدى الصحف مقال انهزامي بارز، لماذا؟ وكيف العلاج؟

صاحب المقال يمتدح الجائزة ويبرئ ساحتها من تهمة الصهيونية والتعصب، ويقول إن إعطاءها لنجيب محفوظ دليل على أن ما كان يثار حولها غير صحيح.. سبحان الله! ما أقرب عقولنا من التسليم للادعاءات الباطلة.

أيها الأحباب.. لقد أشيع في الأوساط الثقافية والأدبية في الفترة الماضية «القريبة» أن «أدونيس» مرشح لنيل جائزة نوبل، لا لشيء إلا لأن أدونيس يمثل شخصية الكاتب الذي يرى أن الأدب إنما هو انفصال المتحول عن الثابت، انفصال الأديب

عن الدين والأخلاق... ولو أعلن ـ هذا العام ١٩٨٨م أن أدونيس قد نال الجائزة لرأينا منكم التطبيل ذاته، والاهتمام نفسه، لماذا؟

لماذا نتناسى كلَّ هذا؟ وأن القائمين على الجائزة لا يمنحونها جزافاً: فليسوا انفعاليين مثلنا، ولا «غافلين» مثلنا، وإنما يعرفون ماذا يصنعون.

وجائزة نوبل لن تزيد أدبنا العربي عزةً ولا مجداً، خاصةً وأنها تتجاهل الأدب الذي يدل على شخصية أمتنا الإسلامية، إنها تؤيد الإقليمية وتدعو إليها.. وترفض أن تسلِّم جائزتها بدون فائدة تجنيها.

أيها الأحباب.. أين أقلامكم المباركة عن «جائزة الملك فيصل العالمية» مثلاً؟ لماذا لم تتقاطر حروفكم وكلماتكم في الإشادة بها بهذه الصور التي فعلتموها مع جائزة نوبل؟

إن الأولى بنا أن نرسِّخ مبدأ الشخصية الإسلامية في أدبنا بعيداً عن هذا البريق الخادع الذي يأتينا من قبل أعدائنا.

إن علامة «استفهام» كبيرة تبرز أمام منح جائزة نوبل لنجيب محفوظ، هذا الاسم الذي قاطعته بعض الدول

الإسلامية لموقفه من الصلح من القضية الصهيونية اليهودية.. ومن هنا وجدنا ممن أشادوا بجائزة نوبل من يقول: إن على الدول التي قاطعت نجيب محفوظ أن تعيد النظر في هذه المقاطعة، فقد جعلت منه جائزة نوبل «الصهيونية» أديباً عالمياً.

هل هذا هدف من أهداف منحه الجائزة؟ نعم، وهناك أهداف أخرى يعرفها المهندسون الماهرون لجائزة نوبل.

يا للحسرة حين تصبح «جائزة نوبل» تزكية للناس!..

وأخيراً إن بين «جائزة نوبل» و«مؤتمر المدائح النبوية»، المهمل إعلامياً جسرًا من الحزن والأسى والمرارة في قلوبنا.

ألا ليت شعري متى تزول هذا التبعية الثقافية البغيضة من عقولنا؟

*****